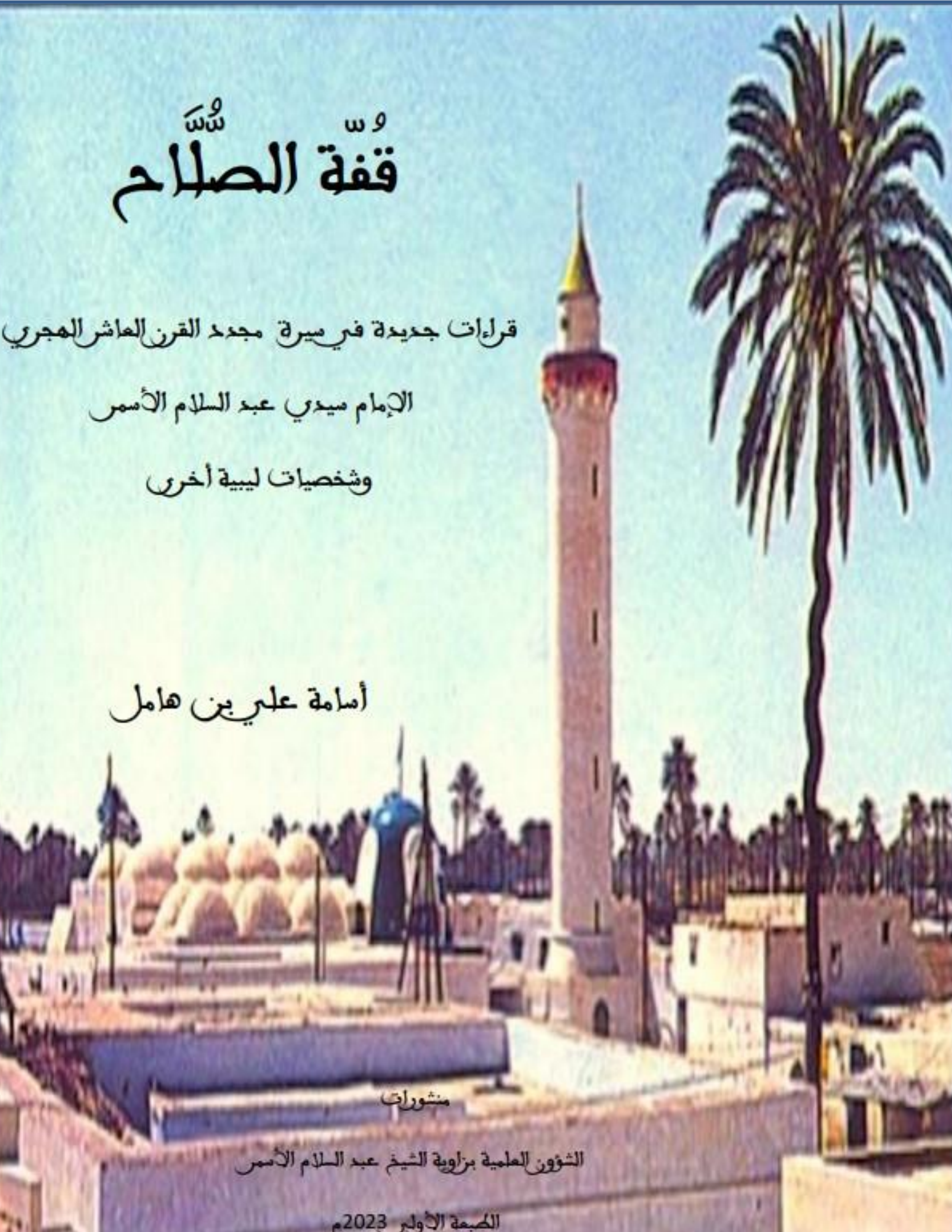

قفة الصلاح
قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري
الإمام سيدي عبد السلام الأسمر
وشخصيات ليبية أخرى
أسامة علي بن هامل
منشورات
الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر
الطبعة الأولى 2023م

قُفّة الصلاح

قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري
الإمام سيدي عبد السلام الأسمر
وشخصيات أخرى

سيدي عبد الله النبيل الإدريسي

سيدي سليمان الفيتوري

سيدي زلي

أمي عائشة التاورغية

سيدي مفتاح سواق الحجل

سيدي إبراهيم بن ناصر

سيدي علي البكو

أسامة علي بن هامل

منشورات
الشؤون العلمية بزاوية سيدي عبد السلام الأسمر
الطبعة الأولى 2023م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى على سيدنا مُحَّد نور الحق وسيد الخلق وآله وصحبه وسلم

وبعد،

هذا مجموع مكتوبات دبجتها على فترات متفاوتة، أردت من خلالها إثبات بعض الملاحظات التي وقفت عليها في مسيرة قراءاتي وبحوثي في تاريخ بلادنا.

مكتوبات ليست من قبيل المقالات ولا البحوث بالمعنى الأكاديمي، بل ربما هي أقرب للرسائل من أي ضرب من ضروب الكتابة، رسائل للتواصل مع جيل أعتقد أنه لم يولد أفراده بعد، وبالتالي فهي سلوى لي ولكل محب لجناب صالحي بلادنا في هذا العصر الذي نعيش فيه عقوقا لم تشهد له البلاد في تاريخها مثالا.

رسائل لمن يأتي ليتقفى حَيَوات رموز الوطن، ويستجلي أدوارهم التي لا تزال مغيبة بين ثنايا المأثور والمسطور، فيفك رصد ما في زوايا خبايا السطور المخطوطة والمطبوعة ليقرأ ما كتبه الأميون قُدست أسرارهم العلية، ويسمع نداء من حنايا صدور أجدادنا وأمهاتنا رضوان الله عليهم المترعة كؤوسهم بصافي سلاف الحب، يفيض السابق منهم للاحق في كأسه من بوارق القرب.

لا وطن إلا بقربهم، ولا انتماء إلا بحبهم، ولا هوية إلا بهم، وسلوك طريق غيرهم ونكث عهدهم هي الغيرية وسوء المنقلب.

نعم هي رسائل، لكن بين سطورها مفاتيح لذكر يختلي به القادم ليقرأ دفاتر وأضابير ومجلدات ضخمة عمرها 1400 عام توالى على نقش حروفها أميون لا يقرأون ولا يكتبون، لكنه سيجد عندها معاني حق وصدق عن الوطن والوطنية.

ومما أرويه، مقدِّما بين يدي هذه الرسائل للتعريف بمضمونها، دُرّةٌ من درر كلام سيدي ومربي روحي الشيخ العلامة سيدي أحمد القطعاني: (تاريخ ليبيا هو تاريخ التصوف لا غير)، فمن مشكاة أنواره علومه، رحمه الله، أستمدّ.

قُفّة الصُّلّاح أسامة علي بن هامل

طرابلس 20 رمضان 1444 هـ

(1) مجدد القرن العاشر الهجري سيدي عبد السلام الأسمر[1]

"ولو عاش بعد ذلك لاتخذه أهل المشرق والمغرب مذهبا لعلو ذوقه"

الإمام الأكبر سيدي عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري ﷺ، من أكبر رموز الإصلاح في ليبيا، ولد في بلدة زليتن في الثاني عشر من ربيع الأول عام 880 هـ، وتوفي والده وعمره عامان وشهران، ليكفله عمه الشيخ أحمد، الذي تزوج والدته السيدة سليمة الدرعية، بعد وفاة أخيه، وفي أحضان هذه الأسرة الكريمة نشأ وترعرع.

ودون شك فإن لنشأة الإمام الأسمر في بلده زليتن، التي تعد من أكبر معاقل التصوف في ليبيا، دور في تشكل شخصيته الصوفية، لكن الدور المباشر في توجيهه العلمي والصوفي كان لعمه الشيخ أحمد الذي كان "من أكابر الفقهاء الطرابلسيين متبعا لظاهر الشرع لا يخرج عنه يمينا ولا شمالا"[2]، ووالدته السيدة سليمة [3]ابنة العالم المغربي عبد الرحمن الدرعي وأخت العلامة أحمد بن عبد الرحمن الدرعي، وهو ما يؤكده قول الإمام عند حديثه عن عمه الشيخ أحمد بقوله " وكان هو أول مشايخي في تعليم العلم، وهو الذي تولى أمري والقيام بشؤوني بعد موت والدي لأن والدي لما مات تركني في حجر أمي ابن سنتين وشهرين،

1هذه المقالة جزء من الفصل التمهيدي لرسالتي للماجستير، قدّمتها لجامعة الزيتونة تحت عنوان "العلامة الليبي الشيخ أحمد القطعاني – حياته وجهوده وآثاره"، وأُجيزت يوم 7 يونيو 2022م.

2 الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية المسماة بالطريقة العروسية الشاذلية، الإمام عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة مصر، 1964م، ص17.

3 سليمة ابنة العلامة المغربي عبد الرحمن الدرعي، يرتفع نسب أسرتها الى الصوفي المغربي عبد السلام بن مشيش، حفظت القرآن الكريم على يد والدها وتفقهت عليه، وصفها من ترجم لها بأنها عابدة قوامة صوامة، كانت برفقة والدها أثناء مروره على طرابلس متوجها إلى المشرق عندما التقاه السيد سليم الفيتوري، وخطبها منه وتزوجها، ولا يعرف على وجه التحديد سنة وفاتها. بتصرف من القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب العربي، بنغازي ليبيا، الطبعة الثانية، 1993م، ص 35، 36.

وكان هو زوج أمي بعد موت والدي جزاه الله عنا خيرا"[4]، وهو أيضا أول أساتذته فقد درس عليه علوم النحو والمنطق والتوحيد والفقه[5].

ورغم ندرة المعلومات عن المرحلة التأسيسية لحياة الإمام، إلا أن في ثنايا النصوص التي كتبها عنه تلاميذه[6] ما يمكننا من رسم صورة عن محيطه العلمي والصوفي الذي عاش فيه، خصوصا الدور العلمي والثقافي الكبير لأسرته الذي ظل غائبا، فتلك النصوص تكشف لنا عن وجود مدرسة علمية بمستوى متقدم وعال كانت تقوم عليها أسرته ويترأسها عمه الشيخ أحمد، ويفهم ذلك من خلال حديث المصادر عن إتقان الإمام لقراءات القرآن الكريم مبكراً، وهو ما لا تتوفر عليه الكتاتيب الصغيرة التي تكتفي بتحفيظ القرآن الكريم، إذ يتطلب إتقانُ قراءات القرآن دراستَها في مدارس تتوفر بها تخصصات متقدمة في علوم القرآن.

وفي ثنايا الوقائع التي ذكرها الإمام في رسالته الأنوار السنية ما يزيد في جلاء صورة ومستوى تلك المدرسة التي كانت تديرها أسرته، ومنها قوله "ومما أنعم الله به علي في الصغر في أيام قراءتي على عمي أحمد لقد تسألني الطلبة عن المسألة"[7]، وعلاوة على أن هذا النص يفيد بازدهار المدرسة بالطلبة، يعكس أيضا مستواها العلمي المتقدم بحيث تدار فيها حوارات وأسئلة ونقاشات بين طلابها. ولا بد أيضا أن نتوقف عند حديث المصادر عن زيارات قام بها بعض علماء الإسلام كالامام أحمد زروق صاحب المدرسة الزروقية، وشيخ الأزهر شمس الدين اللقاني ، لأسرة الإمام الأسمر، فقطعا مثل هذه الزيارات من مثل هؤلاء الأعلام تعكس مدى الشأو الذي بلغته مدرسة أسرة الإمام، كما أن حديث الإمام عن ترحيب أستاذه الشيخ عبد الواحد الدوكالي به عند انتقاله إليه للدراسة عنده ما يشير إلى معرفة مسبقة بين

---

4 الأنوار السنية، نفس الصفحة

5 الأنوار السنية، نفس الصفحة.

6 ألف في سيرة الإمام الأسمر الكثير من تلاميذه، لكن ما وصلنا منها هو روضة الأزهار للشيخ كريم الدين البرموني، والنور النائر للشيخ سالم السنهوري، والصغير للشيخ عبد الرحمن المكي، لكننا سنعتمد على روضة الأزهار غالبا لأنه مطبوع ومحقق خلافا للكتابين الآخرين فكلاهما لا يزال مخطوطا ولذا سنعتمد عليها بشكل أقل، بالإضافة لاعتمادنا على كتاب الأنوار السنية الذي ألفه الإمام وذكر في ثناياه معلومات تفيد في توضيح جانب من سيرته وسيرة أسرته.

7 الأنوار السنية، ص 10

أستاذه الدوكالي وعمه الشيخ أحمد، وكل ما مر دلالاتٌ تؤكد ارتباط مدرسة أسرته بمدارس المحيط العلمي لا في البلاد فقط بل في بلاد الإسلام [8].

كما أنه لا يمكننا إغفال اتصال الأسرة الدرعية العلمية المغاربية بهذه الأسرة، فما زواج والده السيد سليم بوالدته السيدة سليمة ابنة العلامة عبد الرحمن الدرعي وأخت العلامة علي، إلا دليل آخر على الاتصالات العلمية التي ربطت أسرته بالمحيط العلمي القريب والبعيد.

وقبل أن نغادر هذه المرحلة يتوجب علينا التوقف عند نص آخر يقول فيه البرموني عن السيد سليم، والد الإمام، إنه "كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وكان يتكلم على معاني الكتاب كلاماً بليغاً تحير فيه العلماء، وكان يرد الغلطة على القارئ إذا سمعه بدل أو غير أو زاد أو نقص أو انتقل من سورة إلى سورة، وكان يجلس في الزاوية التي يتلى فيها القرآن كتاب الله ينصت للقرآن من أفواه الطلبة"[9]، وبالإضافة إلى أنه نص يزيد من إثبات وجود زاوية خاصة بأسرة الإمام، فهو يعكس الأدوات والأساليب التعليمية التي كانت تستخدمها هذه المدرسة، متجاوزة فيها أساليب التعليم بالكتابة والقراءة إلى أساليب أخرى نرى مؤسسات التعليم والأكاديميات الكبرى حول العالم تتنبه إليها، كأساليب خلق الأجواء وشحن المحيط في المدارس بالمادة الأساسية التي تقوم عليها العملية التعليمية وتتحول فيها المعلومة إلى ثقافة مكثفة يسهل معها رسخوها، وأكبر دلائلها حفظ السيد سليم للقرآن الكريم سماعاً دون قراءة أو كتابة وتمكنه منه حتى أنه يرد القراء عند خطأهم في التلاوة، كما أن المحيط العلمي الكثيف مكنه من المشاركة في العلوم والمعاني حتى وُصف بـ"العالم النحرير إذا تكلم وقطب العلوم إذا سئل"[10].

وفي كل الأحوال فإن المكانة الكبيرة لمدرسة أسرة الإمام كانت السبب في تعرف المحيط العلمي عليه في وقت مبكر من حياته لحد شهرته، وهو ما يعكسه قوله "ومما أنعم الله به علي كنت في صغري مستغرق

---

[8] الأنوار السنية، ص 2 ، حيث ينقل عن أستاذه الدوكالي حديثه عن والده ووالدته ما يؤكد معرفة أستاذه المسبقة بأسرته، وكلها إشارات تؤكد الصلة المسبقة بين المدرستين.

[9] روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع البعض من مناقب صاحب الطار، الشيخ كريم الدين البرموني، تحقيق عبد الحميد الهرامة، منشورات معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط1، 2007م، ص 156.

[10] القطب الأنور، الشيخ أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي ليبيا، ط2، 1993، ص 37.

الأوقات في تعلمي علم الظاهر حتى حصلت منه ما يسره الله سبحانه وتعالى، وحصل لي به في بلادي وغيرها صيت عظيم وجاه في الخلق".

وعلى الرغم من الرتبة العلمية التي بلغها الإمام في ذلك الوقت المبكر من حياته، إلا أن أسرته قررت الدفع به لمستويات علمية وعملية أكثر تقدماً، فتوجه به عمه عام 890هـ إلى مدرسة الدوكالي[11]، ببلدة مسلاتة، إذ يقول الإمام "وبعد انتهائي من حفظ القرآن ومعرفة ما يصلح بي من أمر ديني توجه بي عمي أحمد الفيتوري رحمه الله إلى الشيخ الكبير الشهير بالولي الصالح الإمام القدوة أبي مُحَمَّد عبد الواحد بن مُحَمَّد الدوكالي"[12].

واستمرت مدة عملية التحصيل العلمي في مدرسة أستاذه الدوكالي سبع سنوات، درس خلالها، كما يقول في كتابه "العظمة في التحدث بالنعمة": "المختصر والرسالة ومقدمة الإمام الأشعري في علم التوحيد"[13]، وإن كانت هذه العلوم سبق أن درسها على يد عمه الشيخ أحمد، إلا أن من الواضح أنه درس مطولات كتبها عند أستاذه الدوكالي مقرونة بسلوكه للتصوف على يديه إذ أخذ عنه الطريقة العروسية، ما يفيدنا في رصد وتعرف ملامح مفردات المنهج العروسي الصوفي في التربية والسلوك، الذي يقوم على بناء شخصية المريد الصوفي على أساس علمي في المقام الأول، وهو ما نرى الإمام ينهجه أيضاً في مدرسته التي أسسها في موطنه فيما بعد.

وقبيل اكتمال السنوات السبع التي قضاها الإمام في مدرسة استاذه الدوكالي، تحدثنا المصادر عن ملامح معارضة الأستاذ الدوكالي لسلوكٍ صوفيٍّ سلكه الإمام وانتهى باعتراف الأستاذ بتقدم تلميذه وإصراره على

---

[11] يرى د. مصطفى بن رابعة في تحقيقه لرسائل الإمام أن عمره لما رحل به عمه إلى أستاذه الدوكالي كان اثنتي عشرة سنة (ينظر رسائل الأسمر، جمع وتحقيق ودراسة د. مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2003، ص 23)، لكن سنجد الإمام يقول في كتابه الأنوار السنية إنه بعد أن قضى سبع سنوات في مدرسة أستاذه الدوكالي بدأ في رحلة جديدة للتلقي على عدد من علماء البلاد، أولهم الشيخ عبد الله العبادي، وبكل تأكيد كان لقاؤه بالعبادي قبل سنة من وفاته التي كانت عام 989 هـ وبإنقاص السنوات السبع التي قضاها في مدرسة أستاذه الدوكالي نتأكد من أن عمره كان عشر سنوات عند مجيئه لأستاذه الدوكالي، أي عام 890 هـ، وهو ما أثبتناه.

[12] الأنوار السنية، ص 3

[13] موسوعة القطعاني الإسلام المسلمون في ليبيا من الفتح الإسلامي وحتى عام 2000م، الشيخ أحمد القطعاني، دار الغريب، القاهرة، ط1، 2011، ج1، ص 379.

تخرجه، وإن كنا لا نعرف كثيرا من التفاصيل حول ذلك إلا أن اعتراف الأستاذ بالتقدم العلمي والصوفي الذي حصله الإمام في ذلك الوقت المبكر يشير إلى امتلاك تلميذه الإمام لمشروع إصلاحي.

ويبدو أن الإمام فضّل قبل رجوعه لبلدته أن يعرض مشروعه على علماء البلاد، فقرر زيارة ثمانين عالما "أولهم الشيخ سيدي عبد الله العبادي، وآخرهم سيدي عبد النبي بن خليف بن عبد المولى"[14]، وتؤكد المصادر أن جميعهم أذنوا له بالتصدر للدعوة وبالريادة العلمية والصوفية[15]، فقرر عندها الرجوع لموطنه في زليتن، والبدء في وضع لبنات مشروعه الإصلاحي الذي يبدو أنه قوبل برفض في الأوساط العلمية، ومن دلائل ذلك الرفض ما حدثتنا عنه المصادر من حدوث خلاف بينه وبين الشيخ سالم بن طاهر، أحد علماء زليتن، وإن انتهى بإذعان الأخير له وانضمامه لمشروعه الإصلاحي.

لكن اتساع رقعة المعارضين من علماء زليتن يبدو أنه اضطر الإمام للعودة مجدداً لسياحة طويلة زار خلالها معاقل وزوايا التصوف في البلاد بدءا من زليتن ومرورا بعدة مناطق كساحل الأحامد وطرابلس، بل وخارج البلاد أيضا حيث وصلت سياحته إلى زعوان أحد معاقل التصوف في تونس[16]، بغرض عرض رؤاه وأفكاره، والاطلاع على أوضاع معاقل العلم والتصوف، وبكل تأكيد فإن هذه الرحلة مكنته من تطوير أفكاره وتوسيع رؤيته، فعاد إلى بلدته مرة أخرى بشكل نهائي ليؤسس مدرسته الصوفية الإصلاحية، التي تحولت خلال القرون الخمسة التالية إلى معقل صوفي وصلت أصداؤه إلى أغلب أقطار الإسلام شرقاً وغرباً وجنوباً.

وبقراءة لمسيرة الإمام في تأسيس مشروعه الإصلاحي، يمكن تقسيم مراحلها إلى الآتي:

- <u>مرحلة التمهيد والتعريف:</u>

وهي المرحلة التي بدأت بزليتن وصولا إلى زعوان، وإن كانت المصادر لا تسعفنا بكثير من التفاصيل عن مضمون المشروع الإصلاحي للإمام، إلا أن كمَّ المناظرات التي أشارت إلى وقوعها بينه وبين علماء بلدته، وأبرزها وأهمها مناظرته مع الشيخ سالم بن طاهر، والشيخ سالم الحامدي، والشيخ سعيد التطاوني، والشيخ كريم الدين البرموني، تعكس رفضاً لجديد يبدو أن الإمام أضافه للمنهج الصوفي والعلمي السائد في البلاد

---

[14] الانوار السنية، ص 14.

15 نفس المصدر، نفس الصفحة.

[16] روضة الأزهار، ص 230.

وقتها، ما دفع هؤلاء العلماء إلى معارضته، خصوصا أننا نلاحظ أن تلك المناظرات لا تركز إلا على قضيتي الذكر الجماعي واستخدام آلة (الدف)، وهي ذات القضايا التي نجدها أساسا لمناظرات أخرى بينه وبين علماء المناطق التي مر بها خلال هذه الرحلة التعريفية بمشروعه، كمناظرته مع الشيخ مبارك الحامدي في ساحل الأحامد، ومناظرة مع الشيخ مُحَمَّد الحطاب في طرابلس، وفي كل منطقة يزداد حجم الاعتراضات على أسلوبه الإصلاحي لحد معارضته من قبل السلطة الحاكمة، وفي كثير من الأحيان تقترن حملة الاعتراض بإخراجه من كل منطقة يصل اليها.

وفي المناطق التي مر بها يلاحظ استخدامه لأسلوب خاص في إشهار دعوته والتعريف بها، وهو الدعوة للذكر الجماعي، بهدف فتح الباب على مصراعيه لكافة شرائح المجتمع للاجتماع، والمجاهرة باستخدام آلة الدف التي عادة ما تكون مصاحبة لعملية الاجتماع للذكر، لهدفين، حسب رأيي، الأول للخروج بعملية الدعوة إلى فضاءات أوسع من الزوايا والمدارس لتضم شرائح مجتمعية أوسع، والثاني وسيلة للأولى من خلال سرده مناظيم شعرية بمصاحبة الدف بأسلوب عامي سهل وميسر الفهم لعامة الناس، تتضمن أفكاره ورؤاه الإصلاحية الخاصة به [17].

ويبدو أن هذا الأسلوب يهدف أيضا إلى نقل الحالة الصوفية من ممارسة فردية على هامش الحياة العامة، إلى الممارسة الجماعية، فحالات الاعتراض التي عكستها المناظرات لم تنكر الذكر واستخدام الدف، بل أنكرت الذكر في شكل جماعي واستخدام الدف بشكل مصاحب، وربما نفهم من هذا ملمحا آخر يشير إلى سعي الإمام لنقل تلك المسائل العلمية التي غلب عليها الاشتغال الفقهي إلى المجال الصوفي في نموذج تطبيقي من خلال الاجتماع للذكر في انعكاس واضح لاشتغاله على قضية المقاصد الشرعية.

---

[17] يكشف الشيخ القطعاني عن بعض قضايا فكر الإمام التي تضمنتها مناظيمه الشعرية، إذ يشير الى أن الإمام قام بمهمة عظيمة من خلال توثيق أسماء العلماء والمتصوفين والرموز الإسلامية في قصائده، فحفظ هذه الأعلام في ذاكرة الأمة في الوقت الذي كانت تواجه فيه خطراً محدقاً بعقيدتها الإسلامية على يد الهجمات الصليبية التي نفذها الإسبان وفرسان القديس يوحنا وغيرهم، بل يؤكد أن اللغة الدارجة ميسورة الفهم التي استخدمها الإمام في نظم أشعاره كان مقصده منها أن يحفظها عامة الناس لبساطتها وسهولة فهمها، لإشاعة تلك الأسماء والرموز الإسلامية كثقافة عامة في المجتمع. ينظر "هويتنا في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر"، ضمن كتاب سري للغاية، الشيخ أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس ليبيا، ط 1، 2018م، ص 6 .

كما نلاحظ أيضا نقله لطريقة المناظرات من مستوى المحاججة بالأدلة الشرعية، إلى مستوى عملي يتجاوز النظري من خلال عرض آرائه في شكل مناظيم شعرية، لدعوة مناظريه المختلفين معه للانخراط بشكل عملي في حلقة الاجتماع للذكر والاستماع لفهم واستيعاب الجديد الذي يقدمه من خلال أشعاره، ويؤكد هذا دعوته لمناظريه إلى تجاوز النقول الفقهية، وتأكيده أنه يحفظ عن ظهر قلب كتبها ومصادرها، بل ويسمي في أغلب مناظراته أسماء بعض تلك المصادر التي نقل منها مناظروه حججهم[18]، ولا غرو فنحن نجده يذكر في رسالة الأنوار السنية أنه يحفظ "البخاري ومسلم ومختصر خليل والرسالة والمدونة"[19].

ومن الوقفات التي تغري الباحث بالتعرف على المزيد عن فحوى دعوة الشيخ الإمام، وفودُ عدد من علماء الأقطار العربية والإسلامية من مسافات بعيدة لمناظرته، بعضهم قدم من حواضر علمية كبرى، كالشيخ سالم السنهوري من الأزهر، والشيخ العاقب بن أقيث من تنبكتو حاضرة العلم وسط أفريقيا، والشيخ محمد الحطاب من مستقره في مكة المكرمة، والشيخ سعيد التطاوني من تونس، ولا يُعقل أنهم قطعوا كل هذه المسافات لمناظرته فقط حول ذات المسألتين، وهما الاجتماع للذكر وآلة الدف، فدون شك أن دعوته التي أعلن عنها كانت تحمل هموما أخرى وربما حلولا طرحها أيضا تبتغي مقاصد الشرع ولا تقف عند حرفية النصوص التي تشتغل بها الأوساط العلمية في العادة، وربما كان لها بُعد سياسي أيضاً، فلا يمكن قبول أن تصدر السلطة الحاكمة قرارا بنفي الإمام من أجل خلاف فقهي حول مسألتي الاجتماع للذكر واستعمال الدف، ثم تجرد حملة عسكرية لمحاصرته في منفاه في بني وليد[20]، ما يعني أن حركته الإصلاحية لامست شيئا من فساد السلطة الحاكمة، ودعت إلى إصلاحه، وربما يكون وصل لحد بناء قاعدة لمقاومة تلك السلطة داخل طرابلس أولا، ثم في قلعة بني وليد.

مرحلة التأسيس:

---

18 كما حدث في مناظرته مع الشيخ سالم الحامدي، إذ يذكر البرموني أن الحامدي جمع له، رفقة عدد من علماء البلاد، فتاوى من مصادر فقهية كـ "المدخل وابن الحاجب والبرزلي والمعيار"، وهي من الكتب المعتمدة في المذهب المالكي، لمناظرته، لكنه سلك معهم مسلكا عمليا، قبل أن يجيبهم على مسائلهم ويعزو نصوصها إلى الكتب التي اصطحبوها معهم من ذاكرته.

19 الأنوار السنية، ص 18

20 روضة الأزهار، ص 316 وما بعدها.

وتبدأ هذه المرحلة بتراجع أغلب مناظري الإمام عن مواقفهم المعارضة، وتحول أكثرهم إلى أتباع له، كما نلاحظ تغير موقف السلطة الحاكمة وسماحها له باختيار أي منطقة للسكنى وممارسة نشاطه منها[21].

وفعلاً بدأ الإمام بعد خروجه من منفاه بالبحث عن منطقة لتأسيس مركزه الرئيسي الدعوي، حيث تخبرنا المصادر أنه غادر منفاه في بني وليد باتجاه تاورغاء، ثم مصراتة، ليختار أخيرا موطنه الأصلي في زليتن موقعا لإنشاء زاويته، التي مثلت فيما بعد القاعدة الأساسية لمشروعه الدعوي[22].

وشكل تلاميذه القدماء أهم أسس ومرتكزات زاويته، كالبرموني وبن طاهر والحامدي والتطاوني، كما نلاحظ في هذه الفترة نتائج رحلته السابقة للتعريف بأفكاره ورؤاه، فمن الواضح أن صداها وصل إلى مناطق واسعة، بدليل الإقبال الكبير والهجرة إليه في زليتن عند استقراره النهائي فيها، ومن هؤلاء المهاجرين للأخذ عنه في هذه المرحلة، الشيخ عبد الحميد القمودي، والشيخ مُحَّد الجبالي، والشيخ سعيد الغدامسي، والشيخ عبد الرحمن الفزاني، وغيرهم الكثير.

ويعكس حديث البرموني عن برنامج الإمام العلمي اليومي في زاويته، اهتمامه بتدريس عدد من العلوم في شتى المعارف الإسلامية[23]، ولا بد أن الكتب المقررة في هذه العلوم قد توفرت في المكتبة التي أسسها بالزاوية لتشكل رافداً للتزود المعرفي للطلاب والعلماء، إذ بلغ عدد محتوياتها 500 مجلد عند هجوم يحيى السويدي، مدعي النبوة وحليف فرسان القديس يوحنا، على الزاوية عام 995 هـ[24]، وهو رقم مرتفع بالقياس بظروف ذلك الزمن، وبما تحويه مكتبات أخرى في حواضر الإسلام المختلفة.

وفي فترة تأسيس الزاوية يبدأ المنهج الأسمري العلمي بالوضوح، إذ لا تحتل فقرة الاجتماع للذكر باستخدام الدف إلا فترتين من كامل أيام الأسبوع، وتحديدا ليلتي الاثنين والجمعة من كل الأسبوع، بينما تشغل المحاضرات العلمية باقي أيام الأسبوع موزعة بين سبع محاضرات يوميا، ما يعني أنها تبلغ 49 محاضرة في مختلف العلوم أسبوعياً.

---

[21] نفس المصدر، 317.

[22] روضة الأزهار، ص 317 وما بعدها

[23] موسوعة القطعاني، ج4، ص 375.

[24] نفس المصدر، ج1، ص 105.

ونلاحظ في هذه الفترة أيضا تغير مضمون أشعار الإمام، فبعد أن كانت في الفترات السابقة تعج بالشكوى من المعارضات والعراقيل التي واجهته، خصوصاً آلام النفي وإبعاده عن وطنه، لا نجد لهذه الشكوى وجوداً في أشعاره في فترة تأسيس الزاوية، وأكثر مضامينها يتحدث عن معرفته الواسعة بالعلوم ومصادرها، وسرد أسماء الكتب ذات الانتشار في الأوساط العلمية وقتها، بل وحفظه لها عن ظهر قلب من خلال سرده لنصوصها وعزوها دون الحاجة للرجوع لها.

ويبدو أن تغير الظروف السياسية في البلاد، وفر عوامل إضافية مهدت للإمام العمل براحة أكثر لتعزيز وتوسيع المعقل الرئيسي لعمله الإصلاحي، فقد تمكن العثمانيون من طرد فرسان القديس يوحنا من البلاد، كما أن بعض الولاة العثمانيين أقبلوا على الاتصال به، ومنهم مراد آغا، أول الولاة العثمانيين في ليبيا، الذي ما إن استقرت له الأوضاع حتى بادر بزيارة الإمام في زاويته وأخذ الطريقة العروسية عنه، وأصبح من جملة تلاميذه[25].

- مرحلة الانتشار:

في المراحل الأخيرة من عمر الإمام يُلاحظ توافد عدد من أبرز علماء البلاد بل من أقطار خارجها، ما يؤشر على وصول صدى دعوته إلى العالم الإسلامي.

وإن كنا نرصد وصول أصداء دعوته إلى بعض الأقطار الإسلامية بشكل مبكر، كوجود العالم الحجازي عبد الرحمن المكي[26] من بين تلاميذه المبكرين، إلا أن الإقبال الخارجي في سني عمره الأخيرة كان كبيرا، كما أن العلماء الذين هاجروا إليه من أقطار مجاورة، كالسنهوري وابن أقيث، سرعوا من وصول فكره ودعوته إلى المناطق التي جاءوا منها، ويؤكد ذلك الكم الكبير من رسائله التي وجهها لأتباعه داخل وخارج البلاد، وهي رسائل تعكس أيضا حرصه على متابعة الحراك الصوفي والعلمي لطريقته في تلك المناطق واستمرار دعمه لها.

---

[25] روضة الأزهار، ص 562 وما بعدها.

[26] عبد الرحمن بن علي المكي، من علماء مكة المكرمة، أخذ عن علماء مكة والأزهر، قبل أن يرحل للشيخ الأسمر ويلازمه مدة طويلة، حج عدة مرات، وألف في مناقب الشيخ الأسمر عدة كتب، منها "المختصر الصغير" حققه الشيخ أحمد القطعاني ولا يزال مخطوطا، ينظر موسوعة القطعاني، مصدر، ج2، ص 19.

ولاتّساع الأثر الذي تركه الإمام في محيطه المحلي والخارجي[27]، يمكن إيجازه في الآتي:

- الأثر السياسي:

لا تذكر المصادر التي ترجمت للإمام أي حديث واضح عن مشاركته في الشأن السياسي بشكل مباشر، لكن التركيز في بعض تفاصيل سيرته يوفر لنا إشارات مهمة عن حضوره وأثره في الأوساط السياسية، لكنها ليست مشاركة مباشرة بل إصلاحية وفق المنهج الصوفي الذي يبدأ من إصلاح القاعدة لإصلاح رأس الهرم.

عاصر الإمام فترة توالى فيها عدد من الولاة الطرابلسيين على حكم حاضرة البلاد بعد انفراط أمر الحفصيين وانحسار طرابلس عن تبعية دولتهم، أولهم الوالي يوسف، وهو من تجار طرابلس، الذي اختاره أهالي المدينة حاكماً عليهم بين عامي 875هـ و885 هـ، ثم الوالي مامي، وهو أيضا من تجار المدينة، اختِير للحكم إلى عام 897 هـ، ثم الوالي عبد الله بن شرف ثم ابنه عبد الله المرابط اللذين حكما حتى عام 916هـ، وهو العام الذي احتل فيه الإسبان طرابلس، قبل أن يسلموهما لفرسان القديس يوحنا سنة 941 هـ، حتى طردهم أهل طرابلس بدعم العثمانيين عام 958 هـ.

وخلال فترة حكم العثمانيين عاصر الإمام، مراد آغا ودرغوث باشا ويحيى باشا ومصطفى باشا، إذ توفي في السنة الثانية من تولي الأخير حكم لطرابلس[28].

ولا نرصد أي تلاق بين الإمام والسلطة السياسية في الفترة المبكرة من حياته التي كان منصرفا فيها للتحصيل العلمي، لكنه في كل الأحوال تعرف عليها مبكرا، فخلال وجوده تلميذا في مدرسة الدوكالي عايش واقعة وشاية علماء البلاط في طرابلس بأستاذه الدوكالي لدى الوالي في طرابلس، التي حدت بالوالي لاستدعاء الشيخ الدوكالي وعقد مناظرة بينه وبين علماء البلاط انتهت بدحضه لحجج مناظريه[29].

وإن لم تذكر المصادر من هو ذلك الوالي، لكن يبدو أنه عبد الله المرابط بن عبد الله بن شرف، الذي عرف بعلاقته بأوساط العلماء وكان موصوفا بالصلاح، وهي صفات تنطبق مع وصف البرموني للوالي

---

[27] ينظر المبحث الذي عقده الشيخ القطعاني عن أثر الإمام في العالم الإسلامي، القطب الأنور، ص 180 وما بعدها.

[28] ينظر ولاة طرابلس، الشيخ الطاهر الزاوي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ط1 ، 1970، من ص 139 الى ص 143.

[29] روضة الأزهار، ص 224 وما بعدها.

الذي استدعى الدوكالي بقوله "وكان لذلك الوالي معرفة بالسنة وأهلها"[30]، وبكل تأكيد فمثل هذه الواقعة عكست للإمام صورة الوضع السياسي وطريقة الحكم والشريحة المحيطة بالوالي.

ومن بين ما يؤكد تعرف الإمام على السلطة السياسية بشكل مبكر، أن شيخه مارس دورا أشبه ما يكون لدور المستشار الديني لحكام المنطقة، ويفهم هذا من خلال حديث البرموني عن مكانة الشيخ الدوكالي بقوله إن له "الكلمة النافذة والشفاعة المقبولة عند الملوك والوزراء والأمراء وأرباب الدولة"[31]، وما يؤكد ذلك أنه نصح ابن شرف باستبدال العلماء المحيطين به في قصر الحكم بغيرهم، عقب دحضه لحججهم، وكلها صور دالة على تعرف الشيخ الإمام على ظروف الحياة السياسية في البلاد بشكل مبكر.

وإن لم نرصد أي مواقف للإمام من الوقائع السابقة، إلا أننا نرصد علاقة تختلف مع السلطة السياسية في الفترات اللاحقة من حياته، خصوصا مع دخول البلاد تحت سلطة الإسبان ثم فرسان القديس يوحنا، ومؤكد هي علاقة صدام مع تلك السلطات الغازية، ففي أولى محطات رحلته التعريفية بدعوته، وتحديدا في منطقة ساحل الأحامد نرصد صداما عنيفا بينه وبين قادتها، وعلى رأسهم زعيم المنطقة "همام"، ومفتيها "مبارك الحامدي"، الموالين للسلطة الإسبانية[32]، واللذين وقفا موقفا مُغرقا في العداء منه من أول نزوله في منطقتهم، وهو مؤشر آخر يدل على وجود بُعد سياسي في دعوته، وإن كنا سنبقى عاجزين أمام شح المصادر وسكوتها عن التفاصيل لاستجلاء هذا البعد الهام.

ومما يستدعي الانتباه ومزيد التمحيص، هو أن الفقيه مبارك الحامدي، قاضي ساحل الأحامد، هو العالم الوحيد الذي لم يتراجع عن مواقفه العدائية حيال دعوة الإمام، بخلاف غيره من العلماء الذين اكتفوا بنتائج المناظرة وأكثرهم تحولوا إلى أتباع له وشاركوا في تأسيس وتطبيق مشروعه الإصلاحي. لكن في كل

---

30 روضة الأزهار، ص 224، من قرائني التي ترجح أن ذلك الوالي هو عبد الله بن شرف، أن الشيخ الأسمر قدم إلى أستاذه الدوكالي عام 890 هـ 1486م، وبقي في صحبة أستاذه الدوكالي سبع سنوات، أي إلى عام 897 هـ 1493م، وهي فترة قريبة من حكم ابن شرف الذي بدأ عام 1492م، كذلك لم يُعرف مِن الولاة المنتمين للوسط التجاري والاقتصادي قبل ابن شرف، وكذلك الإسبانيين بعده، مَن وُصف بالصفات التي ذكرها البرموني، ويزيد من تأكيد أن ذلك الوالي هو بن شرف، مضمونُ المناظرة بين الدوكالي وعلماء البلاد التي توجب أن يكون الوالي على معرفة بـ"السنة وأهلها" لقبول نتائج المناظرة والحكم بين الدوكالي وعلماء البلاط.

31 روضة الأزهار، ص 224.

32 موسوعة القطعاني، ج 1 ص 367.

الأحوال لدينا واقعة أكثر أهمية وأكثر قربا من السلطة الحاكمة في طرابلس، وهي واقعة العداء الصريح من جانب قاضي طرابلس أبو مُحَّد بن يحيى من الإمام وحراكه الإصلاحي عند وصوله الى طرابلس، وإن كانت المصادر تشير الى أنه السبب في تأليب السلطة السياسية على الإمام والضغط عليها لاستصدار قرار بنفيه من طرابلس، وقد يكون ذلك مقبولا بحكم المكانة الكبيرة التي وصل إليها الإمام حتى أنه صار إماماً لجامع الناقة، إلا أن الأمر قد يكون أكبر من إمكانيات وتأثير قاضي المدينة، فبعد صدور قرار نفي الإمام من طرابلس تحدثنا المصادر أن الوالي جهز جيشا وسار به إلى منطقة بني وليد لمحاصرة الإمام في منفاه[33]، وهو قرار سيادي لا يمكن أن يصدر بناء على وشاية من القاضي فقط، بل لأسباب تبدو أكبر من ذلك، فبكل تأكيد أنها أسباب على علاقة باتساع أثر الإمام وتجاوزه لأسوار طرابلس إلى كامل الإقليم، ما حدا بالسلطة إلى السعي للقضاء عليه.

وفي كل الأحوال لا تزال المعلومات غير كافية لرسم الصورة الكلية لجهاد الإمام للإسبان، وقد يدفع عدم تحديد المصادر للسنوات التي كان فيها الإمام في طرابلس إلى إنكار موقفه من الإسبان، خصوصا أن البعض اعتقد أن قرار نفيه من المدينة صدر من ابن شرف، لكن العديد من القرائن قد تردّ ذلك، ومنها حادثة ذكرها البرموني عرضا، مفادها أن الإمام أثناء إقامته في طرابلس وإمامته لجامع الناقة، أبلغ زميله في الدراسة الشيخ علي الطرابلسي بوفاة شيخهما الدوكالي[34]، وهي حادثة قطعا كانت في عام 930 هـ فهو عام وفاة الشيخ الدوكالي[35]، أي في الفترة التي كانت فيها المدينة واقعة تحت الاحتلال الإسباني، وبرأيي أن وجوده بالمدينة في تلك الفترة كان يهدف إلى تغيير الأوضاع السياسية، فإمامته في جامع الناقة، وهو الجامع الأعظم بالمدينة، يعني إجماعا طرابلسيا على إمامته وريادته العلمية من جانب، ومن جانب آخر سعيه لاتخاذ الجامع مركزا للتأثير في أوساط الأهالي.

ومما يجب الوقوف عنده قول قاضي المدينة أبو مُحَّد بن يحيى الطرابلسي في رسالته للوالي الإسباني بشأن الإمام "ها هنا رجل من أهل زليتن يزعم أنه القطب ويؤم الناس فأخرجه لئلا يشوش عليك بلادك فتخرج من بينهم على غير اختيارك"، وهو نص يختزن الكثير من الجوانب التي أغفلتها المصادر، وأولها أنّ بلاغ

---

[33] روضة الأزهار، ص 316 وما بعدها، موسوعة القطعاني، ج1، ص 367.

[34] روضة الأزهار، 549 .

[35] من تاريخ الثقافة في ليبيا، مختار بن يونس، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس ليبيا، ط1، 2009م، ص 153.

القاضي للوالي الإسباني لا يحتاج لمكاتبة، خصوصا أن مقر السلطة كان في مركز المدينة، والقضاة في العادة هم ضمن منظومة الحكم وداخل مقر السلطة، وبالتالي فربما كانت رسالة القاضي موجهة لمركز السلطة الإسبانية الرئيسية خارج البلاد، وهي مراسلات تعكس اتساع تأثير الإمام لحد إبلاغ مركز السلطة في الخارج، كما أننا نفهم من هذا النص أن القاضي أدرك أن إمامة الإمام للناس أصبحت تتجاوز إمامة الصلاة وإقامة العبادات إلى أهداف أخرى، وهو ما لمسته السلطة الإسبانية بالفعل لتصدر قرارا بنفي الإمام وأتباعه إلى خارج طرابلس[36].

ومثل هذه النصوص التي تستدعي وقفات للتعمق في قراءتها ومقارنتها بمسار الأحداث والوقائع الثابتة في كتب التاريخ، تفرز المزيد من الصور، فالنفي لم يكن للإمام فقط بل أيضا لأتباعه، ما يشير إلى نجاح الإمام في تكوين مجموعة ضاغطة، ربما ببث روح الوطنية وخلق قاعدة للمقاومة من داخل حصن المدينة، حتى أن الوالي الإسباني لم يشعر بها. كما أننا نرصد ملامح لشكل تلك المقاومة التي كانت يهدف الإمام لتشكيلها، ومنها أنه استهدف طبقة العلماء في المقام الأول، ولذا جاء التنبيه من جانب القاضي القريب حتما من تلك الطبقة، وإن صح هذا فأول ما يجب البحث فيه والوقوف عنده أن المصادر لم تذكر من نشاطات الشيخ الإمام في جامع الناقة سوى إقامة الحضرة، فما الأبعاد التي كان نشاط الحضرة يحملها، ودون شك لو وصلنا عدد كاف من المناظيم الشعرية التي كان الإمام يلقيها أثناء إقامة الحضرة لتجلى شيء من أبعادها الأخرى، ومنها يمكن الولوج لفهم معنى التعبد عنده المتجاوز لمعنى التنسك والانزواء، بل الانغماس في مشكلات الوقت والبحث عن حلول لها، بالإضافة أيضا لفهم طريقته الخاصة في مقاومة المحتل من الداخل.

وعند وضع هذه الحادثة في إطارها التاريخي يمكننا القول أن دخول الإمام إلى طرابلس جاء أثناء أو بعد مفاوضات تمت بين أهالي طرابلس وبين الإسبان لإرجاع والي طرابلس عبد الله المرابط بن عبد الله بن شرف من منفاه في جزيرة صقلية، إذ تتحدث عديد المصادر عن خلو طرابلس من سكانها تماما على يد الإسبان ساعة احتلالها فـ"لم ينجُ من أهلها إلا من تسور ليلا، وانحاز المسلمون إلى تاجوراء وجبال غريان

---

[36] روضة الأزهار، ص 298.

ومسلاتة، وصارت المدينة للنصارى"[37]، وأُسر من بقي من الأهالي، ومن بينهم حاكمها عبد الله المرابط، ونُفُوا إلى صقلية، لتبقى المدينة خالية من سكانها لمدة عشر سنوات[38].

وبعد أن عجز الإسبان عن إعادة إعمارها، طالبوا سكان المدينة بالعودة إليها، لكن الأخيرين اشترطوا عودة واليهم من منفاه ليرجعوا، وهو ما تم بغية إرسال رسالة تهدئة للسكان الذين لم ينفكوا عن مهاجمة أسوار المدينة.

وينقل المؤرخ الإيطالي إيتوري روسي رسالة مؤرخة بسنة 1520 (أي عام 926 هـ) من الملك شارل الخامس تفيد بموافقته على رجوع عبد الله المرابط إلى طرابلس، وهو ما تؤكده مصادر التاريخ من أن منفاه في صقلية كان لعشر سنوات منذ احتلال طرابلس عام 916هـ، بالإضافة لوثيقة إسبانية، نقلها روسي أيضا، تفيد بأن عبد الله المرابط كان موجوداً في طرابلس عام 1523م[39] (أي عام 929 هـ) أي قبل عام من وفاة الشيخ الدوكالي حيث كان الإمام موجودا في طرابلس.

وأرجح بشكل كبير أن نفي الإمام كان في ذات العام الذي توفي فيه شيخه الدوكالي، ففي ذات العام خلت طرابلس تقريبا من سكانها إلا من نحو ستين عائلة من المغاربة المور، وهم مجموعة شديدة الولاء للإسبان، بحسب تقرير نقل روسي تفاصيله لوفد من منظمة فرسان القديس يوحنا زاروا المدينة في ذلك العام، وبالإضافة لخلو المدينة من سكانها فمن المؤكد أن الإسبان لن يسمحوا للإمام بالبقاء في طرابلس بعد تجربتهم مع ابن شرف الذي أرجعوه من منفاه رغبة منهم في إقناع سكان طرابلس بالعودة إليها، لكنه اقتنص فرصة ليفر ويلتحق بالمقاومة في تاجوراء عام 929 هـ، ويتأكد هذا بشكل جلي إذا استذكرنا العلاقة المتينة بين ابن شرف والشيخ الدوكالي التي أشرنا اليها سابقاً، وهي علاقة من المؤكد أنها استمرت بين الإمام والمرابط بن شرف، فيكون بين فرار ابن شرف للالتحاق بالمقاومة ونفي الإمام علاقة أكيدة.

---

[37] نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، حسين الورثلاني، دار الكتب العلمية، لبنان بيروت، ط 1، 2016، ص 187.

[38] ليبيا في عشرين سنة من حكم الإسبان، مُحَمَّد بازامة، مكتبة الفرجاني، ليبيا طرابلس، ط1 ، 1965، ص 87، 88 .

[39] طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان القديس يوحنا، إيتوري روسي، ترجمة خليفة التليسي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، ليبيا طرابلس، ط2، 1985، ص 38.

وما يزيد تأكيد العلاقة بين الإمام والمقاومة لجوؤه إلى مدينة غريان بعد إخراجه من طرابلس، وهي إحدى أهم المناطق التي "تألفت فيها تنظيمية" لاستعادة المدينة من احتلال الاسبان[40]، قبل أن يفكر في الاستقلال ببناء قاعدة خاصة به للمقاومة من بني وليد، ولا بد من التوقف عند الدلالات العسكرية التي يحملها مسمى إقامته ببني وليد، "قلعة" سوف الجين.

ولا يتوفر الكثير من التفاصيل عن مقر مقاومته الجديدة في "القلعة"، الذي قضى سبع سنوات في بنائه، لكن المصادر تجمع على حكاية كرامة تحمل في طياتها مضامين هامة جدا، مفادها أن الوالي الذي نفى الإمام من طرابلس جرد حملة عسكرية كان على رأسها رفقة القاضي والمفتي، بقصد محاصرته في القلعة وإنهاء وجوده، قبل أن تنتهي بالفشل وموافقة ذلك الوالي على أن يختار الإمام أي منطقة للانتقال إليها، وهو ما تم فعليا، إذ غادر الإمام الى موطنه الأصلي في زليتن ليؤسس مركزه الدعوي الرئيسي[41].

وإن كان المصادر ركزت على رواية الحادثة من جانب الكرامة، إلا أنه يمكن من خلالها تقريب زمن وقوعها بعام 936 هـ، وهو العام الأخير لحكم الإسبان لطرابلس، وأرجح أن تكون الحادثة في النصف الأول من هذا العام، إذ سلم الإسبان طرابلس لفرسان القديس يوحنا، في يونيو 1530م[42] وهي منظمة صليبية شديدة في تطرفها ضد الإسلام والمسلمين، يبعد تعاملهم مع شخصيات من مثل القاضي والمفتي، عكس الإسبان الذين ثبت تعاملهم مع شخصيات ذات بعد ديني مثل ابن شرف لمصالحهم، وكذلك عدم إشارة المصادر إلى أي حملة عسكرية لفرسان القديس خارج أسوار طرابلس، عكس الإسبان الذين شنوا حملات قصيرة ضد القرى الساحلية القريبة من طرابلس[43]، وهو وصف ينطبق على الحملة العسكرية على الإمام في قلعته بهدف إنهاء نشاطه وليس بهدف احتلال المنطقة.

وإذ تركز الروايات حول الحادثة على جوانب الكرامة الصوفية كسبب لفشل الحملة العسكرية، إلا أن أسبابا أخرى قد تكون وراء فشل الحملة منها صعوبة الوصول الى القلعة، التي يبدو أن الإمام اختار موقعها بعناية، فهي محاطة بتحصينات طبيعية تجعل من أمر وصول التجمعات الكبيرة إليها صعبا. وربما

---

[40] نفس المصدر، ص 31 .

[41] تجمع على هذه الواقعة كل المصادر التي عاصرت الأسمر والمراجع التي أرخت له، ينظر مثلا روضة الأزهار، ص 316.

[42] طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان القديس يوحنا، ص 53.

[43] نفس المصدر، ص 54.

يكون وراء رجوع الحملة التوصل إلى اتفاق يقضي بتعهد الإسبان بعدم ملاحقة الإمام لقاء تخليه عن فكرة الرجوع إلى طرابلس، وما قد يؤيد هذا الفرض أن الإمام لم يعد إلى طرابلس وإنما غادر القلعة باحثا عن مكان بعيد عن مركز السلطة في طرابلس ليواصل مشاوره الأول في طريق مشروعه الإصلاحي الهادف إلى خلق حركة تغيير شاملة في المجتمع، لا تستهدف مقاومة الغازي فقط بل بناء جيل جديد وفقا لنظريات الإصلاح الصوفي التي تهدف في المقام الأول لبناء أجيال جديدة تحمل قيم بناء جديد.

وتواصل المصادر عدم الحديث المباشر عن علاقة الإمام بالسلطة السياسية، في عهد فرسان القديس يوحنا، الذين خلفوا الإسبان في احتلال طرابلس، لكنها تُجمع على رواية واقعة تعرض زاويته لهجوم عسكري مباشر عام 995 هـ، أي بعد وفاته بأربع سنوات، كان قائدها يحي بن يحي السويدي، بدعم من فرسان القديس يوحنا، وتظهر تفاصيل الهجوم ما يشير إلى أن منطلقه انتقامي، إذ تتحدث المصادر عن قتل عشرين من علماء الزاوية وعلى رأسه سيدي عمران نجل الإمام، وحق المكتبة التي كانت تضم 500 مجلد من الكتب.

وبرأيي أن الحملة العسكرية كانت انتقاما من دور كبير للإمام وزاويته لم تتحدث عنه المصادر في عملية طرد فرسان القديس يوحنا، فباعتبار أن الحملة جاءت بعد وقت من طردهم من طرابلس، وباعتبار وجود علاقة متينة تربط الإمام بالعثمانيين الذين كان خروج الفرسان على أيديهم، أرجّح بشكل كبير وقوف الإمام وراء دعم العثمانيين لطرد الفرسان من طرابلس، مستأنسا بنص نقله البرموني، وغيره من المصادر، أن مراد آغا، أول الولاة العثمانيين، ما إن استقر أمر البلاد له بطرد فرسان القديس يوحنا حتى قدم لزيارة الشيخ الإمام في ألف فارس[44].

والدلائل على علاقة فرسان القديس يوحنا بالحملة العسكرية على الزاوية، وتقديم كل الدعم لقائدها السويدي، تكاد تكون متضافرة، فإيتوري روسي نقل عن تقرير أعده موظفو منظمة الفرسان عام 1587م (أي عام 995 هـ)، يوصي المنظمة بدعم عمليات مفاجئة، ومنها دعم تمرد السويدي 45، ويلاحظ أن سنة إعداد التقرير هي ذات السنة التي هاجم فيها السويدي الزاوية، بل يرى العلامة

---

[44] روضة الأزهار، ص 562، 563.

[45] ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، إيتوري روسي، ترجمة خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ط2 ، 1991، ص 240.

القطعاني أن الإسبان وفرسان القديس يوحنا هم من أوجدوا السويدي ضمن مؤامرة لاستعادة احتلالهم لطرابلس، ويقول عند حديثه عن السويدي :"فأشعل ثورة ضد العثمانيين وزعم أنه المهدي المنتظر واستطاع بفصاحته وبيانه أن يجمع حوله حاضر الوطن وباديه فهزم العثمانيين عند مسلاتة وحاصر طرابلس واتخذ من جربة، القريبة بحرا من الأسطول الأسباني والمجاورة لفرسان القديس يوحنا في مالطا، قاعدة له، وأعلن نفسه ملكا على مصراتة وغريان وترهونة وبني وليد وتاورغا وبعض المناطق الأخرى، وقتل أهل جبل نفوسة شر قتلة، وبسط قادته نفوذهم شرقا إلى الجبل الأخضر"46، ثم يضيف "ووصلته سنة 998 هـ معدات حربية وأسلحة وخبراء مع الجنرال هوميدوس من قبل فرسان القديس يوحنا، ثم أُرسل الفارس كارلو ماركي للاتصال بهذا الشقي وشد أزره وتشجيعه ومعرفة حاجته من السلاح، وأعقبه الكومندتور ستيفانو كيارومنتي مع مجموعة من الخبراء لتنفيذ مخطط إعادة احتلال طرابلس، ووضعت خطة محكمة لذلك بعناية من قبل هيئة الفرسان بيد أنها لم تدخل حيز التطبيق، إذ أفشلها الله سبحانه"47، ويؤكد أن أول أهداف السويدي كانت زاوية الإمام للثأر من مواقف الزاوية وصاحبها المعروف بمواقفه "من الإسبان ولكونه رمزا يمثل أكبر الأعداء التقليديين للإسبان فهاجمها سنة 995هـ وأحرق الزاوية والمكتبة وبها قرابة 500 مجلد"، وقتل القائم على الزاوية الشيخ عمران بعد أبيه الإمام، و"تفرق الكثيرون من مريدي الشيخ وذريته غربا حتى الجزائر وشرقا حتى مصر وجنوبا حتى نيجيريا حيث كانت تنتشر زوايا الطريقة العروسية في كل هذه الأمكنة فضلا عن داخل البلاد "48. وتلك المكانة الكبيرة للزاوية لضمان أمن كل إقليم طرابلس يشير إليها العلامة القطعاني، إذ يؤكد أنه لولا الإمام وزاويته لسقطت طرابلس كما سقطت سبتة ومليلة[49].

ويبدو أن التحالف بين الإمام والعثمانيين، مهّد للتعاطي المباشر بينهما، وأولى مؤشراتها زيارة مراد آغا له في زاويته بزليتن، وهي زيارة تحمل أكثر من دلالة على الدور الريادي الذي اضطلعت به الزاوية وصاحبها، حتى اضطر أول الولاة العثمانيين إلى القدوم لتقديم ما يشبه فروض الولاء، وزادت العلاقة

---

[46] موسوعة القطعاني، ج1، ص 446 .

[47] نفس المصدر، ج1، ص 447 .

[48] نفس المصدر، نفس الصفحة.

[49] مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2021، ص 4 .

عمقاً ووثاقة بتتملذ مراد آغا، إذ أخذ الوالي الطريقة العروسية على الإمام الذي أخذ "عليه العهد بعدم الإضرار بأحد من الناس وأن يأكل من عمل يده، وفعلا كان هذا الرجل الصالح الذي تجبى إلى دار حكمه الأموال الوافرة التي بلغت سنة 1560م (100000) سكودو سنويا يتعيش من صنعة خياطة الثياب وبيعها"[50].

ويؤكد العلامة القطعاني ذلك، إذ يذكر أن مراد آغا جاء لزيارة الإمام ليقدم له شكره على دوره الكبير في مقاومة الإسبان وفرسان القديس يوحنا، وعن موقف الإمام "يبدو أن الشيخ عبد السلام الأسمر كان يشعر بأنه أدى واجبه في الجهاد ومقاومة الغازي، ويرغب التفرغ لمهمته ألا وهي الجهاد الأكبر وتربية الرجال، وليس بحاجة لأن يشكر صنيعه مراد باشا فإنه ما أدى إلا واجبه، لذا امتنع عن استقباله وكبار رجاله وجنده لمدة أسبوع، فلما رأى تصميم مراد باشا وإصراره على مقابلته أذن له بالدخول عليه فصافحه مراد باشا وكل من معه"[51].

وربما نخلُص من كل ما سبق إلى أن الإمام كان متقيدا بمنهج السادة الصوفية في الإصلاح، القائم على عدم الاحتكاك المباشر بهياكل السلطة السياسية، بل الإصلاح عندهم يكون من خلال خلق مبادئ وأخلاقيات خاصة بالحكم والسياسة، والنصوص التي تدعم عمل الإمام بهذا المنهج كثيرة، فوصاياه ورسائله إلى مريديه يكثر فيها التحذير من التعامل مع الحكام بشكل مباشر، بل يرى الابتعاد عن التعامل معهم من نعم الله، إذ يقول في كتابه "العظمة في التحدث بالنعمة": "ومما أنعم الله به علي لم أمش إلى صاحب دنيا ولا متكبر ولم أمش إلى حاكم وإلى قائد من القياد ولا شيخ من شيوخ الرعية ولا قاض من القضاة ولا أمير من الأمراء"[52]، ودون شك فمثل هذه النصائح والمواقف ستكون ذات تأثير كبير في إصلاح قرارات رجالات السلطة، كمراد آغا، الذي تجمعه بالإمام علاقة أخرى أكثر تأثيرا، وهي علاقة المريد بالشيخ.

ومن مظاهر النقد المباشرة لدى الإمام للانحرافات السياسية ما نرصده من مجاهرة ومعارضة لجور الحكام العثمانيين، بعد فترة حكم مراد آغا فيما يبدو، ففي أحد أحزابه يتعوذ من "جور المخازنية وظلم الجبابرة

---

[50] موسوعة القطعاني، ج 1، ص 463.

[51] نفس المصدر، نفس الصفحة.

[52] نفس المصدر، ج1، ص 377.

العادية"[53]، وهم طبقة من المتنفذين المقربين من السلطة الحاكمة عادة ما توكل لهم صلاحيات واسعة بالنيابة عن السلطة منها جباية الضرائب، والسياق الذي أدرج الإمام "المخازنية" فيه عند التعوذ منهم يعكس جملة من المفاسد تعانيها منظومة الحكم يوضحها بقوله "قلة النهي وتبدل الأمور والنطق بالباطل وشهادة الزور وجور المخازنية وظلم الجبابرة العادية"[54]، وهو نص يعكس أيضا متابعته لما يدور في السلطة وهامشها، كما نفهم أيضا أن المجاهرة برفض الظلم والجور الذي تمارسه السلطة وأعوانها لم يكن خاصا به فقط، بل هو دعوة لكافة أتباعه في البلاد بالمجاهرة برفضها، فأحزاب الطريقة يصوغها مؤسسو الطرق الصوفية عادة كأوراد لمريديهم وتُردد يوميا وبشكل جماعي في الزوايا والمساجد، وهو ملمح آخر من ملامح مشروعه التجديدي للتصوف بنقله من حالة فردية انعزالية إلى بؤر المشاكل المجتمعية وضرورة مواجهتها والمجاهرة برفضها.

وفي نهاية متابعة ورصد ملامح البعد السياسي في مشروع الإمام، نجد أنفسنا أمام واقعة أخرى تؤكد الحجم الكبير لمشروعه وأثره الإصلاحي الواسع الذي تجاوز البلاد ليصل الى أقطار إسلامية بعيدة، ما سبب في مخاوف كبيرة لدى حكام البلاد من خروج الأمر من يديهم، فالشيخ عبد الرحمن المكي، أبرز تلاميذ الإمام وأكثرهم ملازمة، يحدثنا في مدونته، التي تعدّ أقدم المدونات التي حفظت لنا سيرة الإمام، عن السنوات الأخيرة من حياة الإمام أنه "جاءه من الشام وبغداد ومن السنود والهنود حتى امتلأت بلاد طرابلس والساحل ومصراتة بالفقراء، وقد جلاهم الأمير إلى بلدانهم وطردهم من جميع طرابلس خوفا منهم يقتسمون البلاد من كثرتهم وهم نحو العشرة آلاف والأحد عشر ألفا"[55]، فالزاوية كانت هدفا لأبرز القوى الكبرى في حوض البحر المتوسط المحلية، ممثلة في العثمانيين، بعد مضي عهد مراد آغا، وفرسان القديس يوحنا والإسبان بدعمهم وتخطيطهم لحملة السويدي.

- الأثر الثقافي والعلمي:

لا تكاد توجد دراسة تعنى بالتاريخ الثقافي والعلمي في ليبيا لا تشيد بدور زاوية الإمام والحديث عن استمرار عمليتها التعليمية لخمسة قرون متصلة منذ تأسيسها حتى الآن، لكننا لا نجد دراسة تفرغت

---

[53] الوصية الكبرى، الإمام سيدي عبد السلام الأسمر، كتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص 96.

[54] نفس المصدر، نفس الصفحة.

[55] القطب الأنور، 183.

لبحث الأثر الثقافي والعلمي للإمام نفسه، ويبدو ذلك راجعا إلى عدم حديث المصادر عن دوره بشكل مباشر وواضح، لكن ببعض التمعن تجد بين طيات هذه المصادر وسطورها صورا واضحة عن دوره ومكانته العلمية والثقافية في عصره.

وأول ما يجب التوقف عنده، قضية المناظرات التي ازدحمت بها محطات حياة الإمام، وشكلها وطريقتها، وعمله على نشرها وترسيخها وسيلة لتنظيم العلاقات العلمية والثقافية كبديل عن الخصومات التي قد تنحدر بأي مجتمع للحروب والقطيعة التي تكون مؤسسة في الغالب على اختلافات فكرية أو عقدية، ولذا فالمناظرات جانب مهم في حياة الإمام يحتاج توسعا في درسها وبحثها، ودورها في بناء الأمن الفكري والثقافي، لنستجلي من خلال هذا الدور ملمحا آخر من ملامح مشروعه الإصلاحي.

وفي محاولة لرصد خلفيات إمكانياته العلمية والثقافية وقدرته الكبيرة في التفوق على مناظريه، يبدو لنا أنها تستند إلى زخم في تاريخ طريقته العروسية، فخلال تراجم رجال الطريقة العروسية السابقين له نلاحظ أن ظاهرة المناظرات كانت تتخلل حياة العديد منهم وتتشابه في كثير من تفاصيلها، خصوصا انتهاء أكثرها بالنفي، مثلما حدث مع الشيخ أحمد أبو تليس[56]، والشيخ فتح الله أبوراس[57]، اللذين واجها حملة اعتراض كبيرة من جانب علماء القيروان وصدرت ضدهما قرارات بالنفي منها، ويلاحظ أن رحلتهما بعد قرار النفي كانت لمنطقة بني وليد، وهي ذات المنطقة التي اتخذها الإمام مستقرا له إثر نفيه، وأيضا شيخه الدوكالي الذي سبق أن مرت بنا واقعة المناظرة التي عقدها له والي طرابلس ابن شرف مع علماء طرابلس، كما تروي المصادر أن عددا من العلماء وفدوا على الشيخ الدوكالي في مدرسته في مسلاتة وناظروه[58].

وبكل تأكيد كان الإمام شاهدا وربما مشاركا في أكثر تلك المناظرات، كما نجده متابعا بشكل دقيق لأصداء الأثر العلمي لشيوخ الطريقة في الأقطار المجاورة، ففي وصيته الكبرى يؤكد أن شيخه كان يفتي على المذاهب الأربعة وأن "فتاواه تعجب علماء طرابلس وتونس أشد الإعجاب ويعلمون بها، وكانوا يقولون سبحان من أنعم على الإمام الدوكالي بهذه العلوم"[59]، وأنه يرى مثله "في جميع الدواكلية حتى في

---

[56] الوصية الكبرى، ص 76.

[57] نفس المصدر، ص 74.

[58] حراس العقيدة، الشيخ أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس ليبيا، ط 2، 2001م، ص 29.

[59] الوصية الكبرى، ص 71.

المغرب كله"[60]، "علماء مصر يعظمونه تعظيما طيبا وشهدوا له بالعلم والإجازة والتعظيم والتفويض"[61] وهي إشارة تجلي مدى ارتباط الإمام بالمحيط العلمي في حواضر العلم في طرابلس وتونس والمغرب ومصر وعدم انعزاله في بيئته فقط، وحرصه على متابعة أثر آراء أستاذه في الأقطار القريبة والبعيدة.

ويبدو أن معايشته ومكابدته لمشاق المناظرات حدا به إلى تقرير مادة علمية ضمن البرنامج العلمي في زاويته لا تبدو متداولة بشكل واسع في الزوايا، وهي مادة علم المنطق، في مؤشر آخر يعطي صورة عن سعيه إلى إرساء القواعد الصحيحة للبحث العلمي والمناظرات والحوارات، بل يشترط أن يكون علم المنطق أساسا لدراسة العلوم التخصصية الأخرى، حيث نجده ينقل في رسالته التي وجهها لأتباعه في تنبكتو عن شيخه الدوكالي قوله "علم المنطق علم شريف يحتاج إليه في كل شيء فمن لم يتوغل في النحو والمنطق لا ثقة لي بعلمه لأن من لا يذكرها لا يجوز له القدوم على قراءة التصانيف وقراءة الحديث والتفاسير"[62].

كما يعد الإمام من رموز التصوف الليبي القلائل الذين اعتنوا بالتأليف "إذ كان له أربعون كاتبا منهم سبعة لا يفارقونه قط إلا في وقت نوم أو طهر عدا ما كان يكتبه بيده"[63]. وفيما تذكر المصادر أن له ثمانية كتب[64]، وإحدى عشرة رسالة[65]، إلا أن ما وصلنا منها قليل، وهي كتابان يحملان اسم "الوصية"، وكتاب آخر يحمل اسم "الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية المسماة بالطريقة العروسية الشاذلية"، بينما ضاعت كتبه الأخرى وعدد كبير من الكتب التي ألفها تلاميذه في سيرته وتاريخه في الهجوم الذي نفذه السويدي على الزاوية، الذي أجدد التأكيد على أن تركيز كتب التاريخ على حادثة استهداف هذا الغزو للمكتبة أكثر من تركيزها على تدمير مؤسسات الزاوية الأخرى، إدراكُها أن للهجوم أبعادا وأهدافا تتعلق بقصد إنهاء دور علمي وثقافي ووطني تجاوز تأثيره حدود الزاوية إلى نطاقات محلية وخارجية أوسع.

---

60 نفس المصدر، ص 72.

61 نفس المصدر، نفس الصفحة.

62 القطب الأنور، ص 176.

63 موسوعة القطعاني، ج 1 ، ص 378.

64 القطب الأنور، ص 119، 120.

65 ينظر رسائل الأسمر، جمع وتحقيق ودراسة مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2003.

وفي كل الأحوال يبدو ما وصلنا من مؤلفاته كافيا للتعرف على اتجاهات التأليف عنده، ومنهجه الخاص به، فنصوص هذه الكتب تعكس بشكل جلي منهجه الذي جمع فيه بين النقل والاستشهاد من مصادر التراث الإسلامي، سواء كان فقها أو أصولا أو تصوفا أو تاريخا، ومزجها بأسلوبه المبسط ليوافق ثقافة كل الشرائح بدءا من طلاب العلم وانتهاء بطبقة العلماء، في شكل نصائح ووصايا.

لكن منهجه في كتابة رسائله يتركز على بحث قضايا وأزمات ومشاكل البلد أو القطر الذي يوجه إليه رسالته، وهنا يتوجب علينا التوقف عند هذا الجانب المتعلق بدرايته لتلك المشاكل والحلول التي يطرحها لتجاوزها ومعالجتها، ويشير هذا إلى اهتمامه الواضح بمتابعة معاناة المسلمين في الأقطار القريبة والبعيدة، وفي ذلك رصد لبعد جديد من أبعاد مشروعه الإصلاحي الذي لم يكن مشروعا محليا كما يمكن أن يبدو لأي قارئ لسيرته، ويضرب العلامة القطعاني على ذلك مثالا بتركيز الإمام في رسالته إلى أتباعه في تنبكتو "على أساس هام جدا لفهم الإسلام والعمل به ونشره لساكني تلك المجاهل حيث تغلب الرطانة الأعجمية واللغات واللهجات الأفريقية الكثيرة جدا حيث تكاد تكون لكل قبيلة أكثر من لغة ولهجة"[66]، ولذا ركزت الرسالة على "تداول اللغة العربية والتحدث بها وتعلمها"[67]، وهو تنبيه يحثنا على المزيد من القراءات العميقة لرسائله لفهم أبعاد أخرى لا تزال غائبة في شخصيته الإصلاحية وفكره ومشروعه الصوفي.

وبالإضافة لمؤلفاته، فهناك مئات النصوص الشعرية التي لا تزال متوارثة بالرواية الشفهية في المجتمع الليبي، وأيضا في الأقطار المجاورة، تؤكد على أثر ثقافي خاص قلما يلاحظ في سير وتاريخ ومشاريع غيره من الإصلاحيين، فرغم مرور خمسة قرون على وفاته إلا أن تأثير مناظيمه الشعرية مستمر وبشكل متكاثف ومتزايد، ولشدة تأثيرها لا تزال عملية تناقلها بذات الأداء والطبوع الموسيقية، ما يشعرنا بنجاح هذا الأسلوب الدعوي الذي اختاره كأداة لتوصيل أفكاره وللوصول الى أهدافه، فقد كان "مكثرا من الشعر الصوفي وينسب له 700 قصيدة عروضية باللغة العربية الفصحى و400 مقطعة باللسان الدارج و800 على موازين الحسن الششتري، و500 على موازين الجعراني، وعدد لا يعلمه إلا الله من الأشعار الملحونة"[68]، و"لعل أطولها المقطعة المسماة (سلسلة الفروع) التي تشتمل على ما يزيد عن 800 بيت

---

[66] القطب الأنور، ص 173.

[67] نفس المصدر، نفس الصفحة.

[68] موسوعة القطعاني، ج 1 ، ص 378.

من الشعر، تليها السلسلة الجوهرية أو الجوهرة على اختلاف في التسمية التي تبلغ أبياتها : 551 بيتا من الشعر"[69].

وتعتبر مدونته الشعرية المروية من أكبر وأهم مصادر التاريخ الليبي، وحقلا كبيرا من حقول الدراسات الاجتماعية والأنثربولوجية والجغرافية لما توفرت عليه من تأريخ للأعلام الثقافة والأدب الليبي والعربي، وتوثيق لعناصر التغيير والتأثير الاجتماعي، وصورا لحياة المجتمع الليبي وصفحات كاملة للحركة العلمية والثقافية والقادة السياسيين وغيرها، وقبل كل هذا مصدرا هاما من مصادر دراسة شخصيته والتعرف على معالم وملامح مشروعه الإصلاحي، ورغم هذه الأهمية إلا أنها لا تزال بعيدة عن اهتمام الباحثين والمراكز البحثية والأكاديمية.

- أثر الإمام في الأقطار الإسلامية

لا يحتاج الباحث كثير جهد لرصد أثر الإمام في العالم الإسلامي، فرسائله التي لا يعرف عددها إلا ما وثقه البرموني في روضة الأزهار منها، كافية للدلالة على انتشار فكره وبلوغ دعوته إلى الآفاق.

كما يعكس مضمون رسائله التي وجهها لأتباعه خارج القطر الليبي، مدى متابعته لأحوال المسلمين والإسلام فيها، فقد ناقش في الكثير منها قضايا على علاقة بواقع تلك البقاع، كاهتمامه بمقاومة انتشار وباء الطاعون في تونس في رسالته التي وجهها لأتباعه في تونس، وهي رسالة مهمة تبين لنا موسوعيته وعدم اقتصار درايته بالعلوم الدينية فقط، بل أيضا الطب من خلال نصائحه لمريديه في هذه الرسالة التي احتوت على حرصه على نشر الوعي الصحي من واقع خبرة ودراية بما في كتب الطب ومصادره[70]، واهتمامه بنشر وتوطين اللغة العربية في مجاهل إفريقيا وتحديدا تنبكتو[71]، كلها دلائل تؤكد أن تلك الرسائل لم تكن لمجرد النصيحة بقدر ما تؤكد عمق وانتشار دعوته في تلك الأقطار ومتابعته لتفاصيل واقع المسلمين فيها.

كما أننا نرصد بكل سهولة معالم انتشار دعوته في العالم من خلال متابعة قائمة تلاميذه، فنجد أن أكثرهم وفد عليه من أقطار إسلامية شتى، كالبرموني والحطاب وابن أقيث والسنهوري، ويلاحظ فيهم

---

[69] نفس المصدر، نفس الصفحة.

[70] رسائل الأسمر، ص 253 وما بعدها.

[71] نفس المصدر، ص 231 وما بعدها.

أمران، الأول أنهم من قادة المؤسسات العلمية والدينية في أقطارهم، فالسنهوري أثره العلمي تؤكده كتب التاريخ المذهب المالكي، والحطاب صاحب المؤلفات الفقهية والأصولية واللغوية الشهيرة حتى أنه يوصف بخاتمة علماء المالكية في الحجاز.

والملاحظة الثانية، أن كل هذه الشخصيات القيادية في الحواضر العلمية هي من جاءت للقاء الإمام، فلم يذكر له أي رحلة خارج البلاد باستثناء رحلة للحج حددها العلامة القطعاني بـ "عام 957 هـ لأداء فريضة الحج صحبة عدد كبير من مريديه"72، وهي رحلة لا يعرف من تفاصيلها شيء. والأكثر لفتا أن السنهوري والحطاب وابن أقيث وغيرهم تؤكد تراجمهم أنهم كانوا من أبرز علماء بلدانهم قبل وفودهم على الإمام وتحولهم إلى تلاميذ عنده، وهو ما قد يطرح سؤالا كبيرا عن محتوى دعوة الشيخ الإصلاحية، وما هي الهموم التي حملتها، وماذا وجد فيها هؤلاء الأعلام حتى يتحولوا من علماء إلى تلاميذ ومن ثم يعتنقوا فكره وينهضوا لنشره.

وبين يدينا نص تاريخي يكشف عن حجم وصدى دعوة الإمام في العالم الإسلامي، فقد كتب الشيخ عبد الرحمن المكي عن وصول أصداء دعوة الإمام الى الحجاز، وهو نص حري بالدراسة والتتبع في مصادر التاريخ الأخرى، خصوصا التي أرخت للقرن العاشر الهجري، إذ يقول في وصفه لرحلته للقاء الإمام: "نوينا السفر أنا وجماعة من أهل مكة نحو المائتين والخمسين فقيرا من حملة القرآن العظيم شاغفين بمحبة الأسمر وطريقته إلى أن وصلنا إلى إسكندرية فأخبرناهم بذلك فسارت معنا طائفة منها نحو المائة فقير ومن كل بلاد طائفة"[73].

ورغم أن الشيخ المكي لم يحدد لنا سنة وفوده على الإمام، إلا أنه يحدثنا عن اتساع دائرة الإقبال على اعتناق أفكار الإمام، فيقول "وفي العام الثاني اجتمعت عنده ستة أركاب من المشارقة والمغاربة"[74]، بل "شاع الخبر بالمشرق والمغرب عند الحجاج، وفي العام الثالث قد جاءه خمسة آلاف من الشام ومصر

---

[72] موسوعة القطعاني، ج 1، ص 379.

[73] القطب الأنور، ص 180.

[74] نفس المصدر، نفس الصفحة.

وبغداد ومكة المشرفة والمدينة المنورة وأخذوا عنه العلوم والطريقة، وجاءه من المغاربة تسعمائة فقير وأخذوا عنه العلوم كالتوحيد والفقه والتصوف والأوراد"[75].

وإن كنا لسنا على دراية كافية بتفاصيل الأدوار الدعوية التي قام بها تلاميذ الإمام في الأقطار البعيدة والقريبة، إلا أن الشيخ المكي حفظ لنا الكثير من النصوص التي تؤكد دورا دعويا كبيرا قام به لنشر فكرة ودعوة أستاذه، وفي إحداها يقول "ولما بلغنا المدينة في الحجة الخامسة والوصية الكبرى المذكورة والشطحة عندنا وقرأناها على علماء المدينة بأجمعهم فأعطونا خمسمائة بندق من الذهب تعظيما للشيخ الأسمر واعتقادا في كلامه فقسمها الفقراء بينهم واشتاقت قلوب العلماء بمحبة الشيخ الأسمر وزيارته"، وهي نصوص الشيخ القطعاني أنها "تدل بوضوح تام على اتساع تأثير الشيخ وشهرته العلمية والصوفية التي طبقت الآفاق"[76]، مستشهدا بنقول أخرى من مدونة الشيخ المكي، فائلا "بل تجاوز أثر الشيخ بلاد العرب إلى بلاد العجم فقد ذكر الشيخ المكي خبر قدوم جماعة في نحو الأربعين تركيا في مركب" للأخذ عن الإمام، وإشارات أخرى يبرزها لنا من ثنايا نصوص كتاب فتح العليم للشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري تشير إلى أن للإمام زاويتين أحدهما في الهند والأخرى في المدينة المنورة"[77].

وانتهى الإمام لمكانة إصلاحية كبيرة وواسعة طبقت شهرتها آفاق العالم الإسلامي، عبر عنها الشيخ المكي بقوله "وقد اتفق على ولايته وطريقته المشارقة والمغاربة وجاءوه واقتدوا به وتركوا معه في زمانه جميع المشايخ والطرق، ولو عاش بعد ذلك لاتخذه أهل المشرق والمغرب مذهبا لعلو ذوقه ومراتبه العلية"[78].

---

[75] نفس المصدر، ص 180، 181.

[76] نفس المصدر، ص 181.

[77] نفس المصدر، ص 182.

[78] نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) "سميت بالأسمر لمبيتي الليالي سمرا في طاعة الله"

اشتهر الإمام الأكبر سيدي عبد السلام بلقبه "الأسمر"، حتى صار علما عليه وتنصرف الأذهان عند إطلاقه إليه، وفسره صاحبه بقوله "سميت بالأسمر لمبيتي الليالي سَمَرا في طاعة الله".

وبرأيي ولو أمعنا النظر والفكر في الوقفات التالية، لفهمنا أن مشاريع الحياة والنماء والحضارة هي "الطاعة" التي بات "الأسمر" يفكر فيها، ونفذها في صباح يومه التالي .. ربي يحنن قلوب الصالحين علينا ولا يعاقبنا بسيئات أهل العقوق، فلا تنقضي أيام الأسمر من دنيانا، قولوا "آمين".

مما استوقفتني في سيرة الإمام، ولا يزال يحتاج بحثا وتنقيبا أكثر:

- قضية إجادته للغات أخرى غير العربية، ففي كتابه الأنوار السنية نجد نصا يذكر فيه ما يقابل لفظ الجلالة في اللغات الأخرى، فيقول "فهو بالعربية الله وبالبربرية أمغا وبالعبرانية إلوهيم وبالفارسية خداي وبالتركية تتقوي وبالرومية أريومي وبالقبطية ليصا"، وغني عن البيان أنه يقصد بالرومية اللغة اللاتينية.

وهي قضية تفتح آفاقا للبحث حول اطلاع الإمام على الثقافات الأخرى في لغاتها الأصلية، ويؤكد هذا قوله في ذات الكتاب "ومما أنعم الله به علي حفظي التوراة والإنجيل والزبور".

وبالتالي هل يمكننا الحديث عن أن اهتمام الإمام بتعليم مريديه اللغات الأخرى في زاويته للانفتاح على آفاق عالمية للمشاركة فيها بل والتأثير، فمن بين تلاميذه المباشرين نجد الشيخ أحمد أبومدين شعيب السقفي، الذي يلقب بـ"الترجمان"، ومن غير المستبعد أن يكون هذا اللقب جاءه من إجادته للغات أخرى غير العربية، وهو ما يفسر لنا حديث المصادر عن دور له في إرجاع أسرى من يد النصارى، وهي مهمة لن تتأتى إلا بإتقانه للغات الإفرنجية.

ومن دلائل عناية الإمام بتعليم اللغات الأخرى في زاويته، ما تضمنته ترجمة العالم الفلكي الشيخ عبد الرحمن التاجوري من أنه كان يتقن اللغة التركية، وهي حادثة جديرة بالتوقف لمسألتين، الأولى أن من المرجح جدا أن يكون الشيخ التاجوري تعلم هذه اللغة على يد الإمام أو زاويته، فالمصادر تؤكد أن للتاجوري أخذا عنه، والثانية تتعلق بإمكانية أن يكون الشيخ التاجوري ضمن الوفد الطرابلسي الذي ذهب إلى الأستانة عام 926هـ لطلب العون من أجل طرد الإسبان، فتراجمه تؤكد أنه زار الأستانة في

عهد سليمان القانوني، والأخير كما هو معروفة حكم في الفترة ما بين 926 هـ و 974 هـ، فإذا تحقق ذلك فالإمام على علاقة بذلك الوفد الطرابلسي، وقد يكون هو من أوفده، وبالتالي سيكون له ولزاويته الدور الأساسي لتحرير البلاد من احتلال الإسبان.

وقد يستأنس في هذا بقول البرموني في الروضة عن مراد آغا، أول حكام العثمانيين في ليبيا، "ما أن استقر الأمر لمراد آغا رحمه الله حتى جاء لزيارة الشيخ عبد السلام الأسمر في أكثر من ألف فارس "، ودون شك لهذه الزيارة مضمون عسكري وعلى علاقة وطيدة بدخول البلاد تحت راية العثمانيين، فلو كانت زيارة مراد آغا للتبرك لما احتاج لهذا الجيش اللجب.

وقبل أن نغادر قضية إجادة الإمام للغات غير العربية، أحب أن ألفت الانتباه لقرائن قد تؤكد هذا السياق، وتتعلق بالتراجم التي وثقها الإمام في وصيته الكبرى لـ"الشيخ صدر الدين الناكوري"، و"الشيخ نصير الدين الأودهي"، و"الشيخ فريد الدين شكركنج"، وهم أعلام من متصوفة الهند عاشوا في فترات سابقة لعصره، فكيف استقى تراجمهم من مصادر لم تترجم للعربية وقتها، وأشهرها كتاب خزينة الأصفياء لمفتي غلام سرور والمكتوب بلغة الأردو، فالشيخ عبد الحي الحسني المتوفى عام 1923م هو أول من نقل تراجم هؤلاء الأعلام إلى العربية في كتابة "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام"، وليس أمامنا إلا القول بأن الإمام نقل من مصادر غير عربية، علاوة على ذلك مئات الأعلام الأعاجم الذين ذكرهم في قصائده ولا يعرف لهم ذكر في كتب التراجم والطبقات العربية.

وقضية علاقة الإمام والزاوية بطرد النصاري من البلاد، تحتم علينا إعداد الفرق المتخصصة للبحث في أراشيف الإسبان وفرسان القديس يوحنا، فدون شك في ثناياها ما يؤكد دوره وزاويته، نعم قام الأساتذة: عمر الباروني ومصطفى بازامة وخليفة التليسي بجهود جبارة، ويجب مواصلة ما بدأوا، خصوصا مع يسر الوسائل اليوم.

- لابد من التوقف عند تراجم تلاميذ الإمام وتفحصها، ومنها ترجمة الشيخ أبوحميدة السقفي ففيها أن الحيوانات المتعادية بطبيعتها كالقطة والفأر كانت يؤتى بها لمجلسه فلا يعدو بعضها على بعض، وبعيدا عن الجدل حول الكرامات، ألا يمكن أن تقودنا هذه الواقعة إلى دور من أدوار الزاوية، وأعني تحديدا عناية الإمام واهتمامه بالحيوان والحياة البرية عموما، خصوصا وأن الوقائع والحكايات المشابهة نجدها في تراجم تلاميذه الآخرين كما في ترجمة الشيخ سالم السملقي الذي

كانت له أيضا عناية بالحيوانات غير المستأنسة والزراعة، ويمكننا النفاذ بذلك إلى بعد آخر من أبعاد شخصية الإمام ويقظته المبكرة والسابقة لعصره بالعناية بالحياة البرية عموما، وسنتحدث لاحقا عن عناية أبرز تلاميذه وهو سيدي مفتاح الصفراني بالبيئة وحمايتها.

- لابد لنا من التوقف عند ترجمة تلميذ آخر من تلاميذ الإمام، وهو الشيخ علي البشت، ففيها أن الله جمع قلوب الناس على محبته فكانوا يأتونه بالنذر فيتصدق بها على الفقراء والمساكين ويقول : رزق الناس يرجع للناس، وهو عمل يكشف دورا آخر من أدوار الإمام وزاويته ويتعلق بثقافة العمل الخيري وإرسائها في المجتمع، فكان سابقا لعصره في إنشاء نشاط يعرفه العالم اليوم باسم جمعيات الدعم الخيري والمجتمعي.
- يجب التوقف مليا عند تراجم هامة، كترجمة الشيخ عبد الرحمن المكي ابن أحد الأسر الحاكمة في الحجاز، وترجمة شيخ المالكية في الحجاز الشيخ مُحَمَّد بن مُحَمَّد الحطاب، وعلاوة على كونهما من أهم تلاميذ الإمام، يمكن أن يفتح الاهتمام بهما طريقا للتعرف على أثر الإمام في الحجاز، خصوصا القضية التي لا تزال ظروفها والمعلومات حولها غائبة تماما، وهي رحلة حجه التي حددها الشيخ القطعاني في موسوعته بعام 957هـ، فمن غير المقنع أن لا تحتفي عواصم الفكر والعلم به، كالأزهر عند مروره بها، ومكة أثناء وجوده فيها، فالأصداء الكبيرة التي ذكرها الشيخ عبد الرحمن المكي للإمام في العالم الإسلامي لا يمكن أن تمر معها مثل هذه الرحلة دون اهتمام بلقائه والأخذ عنه، والمدونات التاريخية للحجاز في القرن العاشر كثيرة، وأغلبها مطبوع ما ييسر البحث، مع ضرورة الانتباه لتصحيف الأسماء وتغييرها ونسبة أي مغربي في المشرق إلى بلده كالطرابلسي والمغربي والإفريقي وهكذا.
- وهي مسألة تقودنا لأخرى من الأهمية بمكان، عن علاقة الإمام وزاويته بالأزهر الشريف، فأبرز شيوخ الأزهر وهما الشمس اللقاني وأخوه الناصر، تخرجا من مدرسة الإمام زروق بمصراتة، فبالإضافة إلى أن الإمام التقى الشمس اللقاني عندما كان الأخير في صحبة شيخه زروق أثناء زيارتهما لعمه الشيخ أحمد الفيتوري، فقد قص علينا البرموني وقائع تؤكد وجود علاقة بين الإمام والناصر اللقاني ومنها رثاؤه له عند وفاته، كما أن أهم تلاميذ اللقانِيَّين وهو الشيخ سالم بن طاهر الذي لازمهما وارتحل معهما إلى الأزهر بعد وفاة الإمام زروق، وهو من أقدم تلاميذ الإمام.

ومن الملاحظات المهمة أن أغلب تلاميذ الإمام درسوا على اللقانِيَّين، فهل كان الإمام يوفد تلاميذه إلى الأزهر، وفي هذا ملمح آخر يؤكد ارتباط منهج الزاوية بمنهج الأزهر، ويجب أن نضيف إلى ذلك التأثير العكسي للزاوية في الأزهر، وأهم أدلة هذا التأثير تتلمُذ علماء الأزهر على يد الإمام وتخرجُهم من زاويته وأبرزهم وأشهرهم الشيخ سالم السنهوري، ما يمكننا من الحديث عن دور للزاوية في دعم الأزهر، بالإضافة لدعم عواصم العلم ومراكز الحضارة كالحجاز وأبرز دلائلها الشيخ مُحَمَّد بن مُحَمَّد الحطاب، وتنبكتو من خلال تلميذيه الأقيثيين أحمد والعاقب، بل ومراكز ذات ثقل صوفي كبير كطنطا في مصر التي استقر فيها البرموني، ولا أدل على تصدره فيها للعلم من أنه كان مفتي المدينة.

- ويجب أن نشير الى قضية أخرى ذات أهمية أيضا، وتتعلق بمؤلفات تلاميذ الإمام، وأشهرها شروحهم على خليل، وباعتباره متنا أساسيا سبق أن درسوه على الإمام في الزاوية، فمن المستبعد جدا أن لا تنعكس آراؤه وطريقة تدرسيه لهم في شروحهم عليه، والتنقيب في ثناياها ربما يوقعنا على شيء من اختياراته الفقهية أو ربما أيضا ترجيحات إذا ما قارنا ما فيها بآرائه في وصاياه ورسائله، خصوصا أن بعض هذه الشروحات مطبوع كشرح الحطاب والسنهوري والبرموني.
- يجب أن ننتبه إلى علاقة الزاوية أيضا بمدارس العلم في المغرب، خصوصا أن علاقة أسرة الإمام بالأسرة الدرعية المغربية العريقة في خدمة العلم، قد تعكس الشأو العلمي الذي بلغته أسرة الإمام حتى صاهرت مثل هذه الأسرة العلمية، ومنها قد نفهم ظروف امتداد طريقة الشيخ حتى بلغت السوس الأقصى، التي وجه إلى تلاميذه فيها إحدى رسائله.

وختاما أقول، إنني في خطابي هذا أتحدث إليك يا طالب العلم الذي تحمل في قلبك انتماء لليبيا: التفت لتراث أسلافك صنّاع الحياة في بلادك، فلا غد لك دون أمسك، وأمسك كما رأيت مشرق بنور وجه "الأسمر" الوضاء الجميل.

(3) إضاءات وجوانب في السيرة العطرة للإمام الأكبر سيدي عبد السلام الأسمر

ما تزال شخصية الإمام الأكبر سيدي عبد السلام الأسمر، رضوان الله عليه، تحتاج الكثير من الدراسات والأبحاث المعمقة، لكشف أبعادها وبيان أدوارها السياسية والاجتماعية والثقافية، فما بين سطور سيرته العطرة يعكس شخصية ليبية وطنية بامتياز، إن لم يكن هو نفسه المؤسس لأمتنا الليبية.

وسأكتفي في هذه المقالة بإثارة مجموعة من الأسئلة والملاحظات، لعلها تستنهض الهمم للبحث عن إجابات لها بقصد الكشف عن المزيد من خفايا الزوايا في سيرته الكريمة، وزاويته تلك المؤسسة الوطنية الرائدة التي كان لها الفضل الكبير في بناء وطننا، لا فضل لغيرها عليه.

يمكن رصد الكثير من الجوانب المهمة حول بناء الإمام زاويته وفق نظام دقيق ومقدم، ومنها إنشائه إدارات عمل متكاملة، من أمثلتها:

- إدارة التوثيق: فقد كان للإمام "أربعون كاتبا، منهم سبعة لا يفارقونه قط إلا في وقت نوم أو طهر"، يترأسهم الشيخ مُحَّد بن عطية بن إبراهيم الملقب بميلاد كاتب وصايا الشيخ ونصائحه، ولا يجب أن نمر مرور الكرام أمام وجود هذا العدد الكبير من الكتبة، فبكل تأكيد لم تكن وظيفتهم كلهم توثيق دروسه ومحاضراته، بل أيضا رسائله ومكاتباته ويومياته وآرائه ونظرياته، وأعماله.
- إدارة الأرشفة: ذكرت المصادر أن مؤلفات الإمام ورسائله احترقت مع ما كانت تحويه المكتبة في حادث الهجوم الذي تعرضت له على يد يحيى بن يحيى السويدي، عميل منظمة فرسان القديس يوحنا، وهذا يعني أن مؤلفاته ورسائله وكل أعماله كانت تؤرشف في المكتبة، كما أن تحديد المصادر لعدد الكتب التي حوتها المكتبة بأنها 500 مجلد يعني وجود فريق بالمكتبة يعمل على الإحصاء والعد والأرشفة والتبويب.
- إدارة المال والاستثمار: تولاها سيدي عمران نجل الإمام، ومهارته وموهبته في إدارة المال وشؤون الاستثمار لا تكفي دون تدريب وتوجيه من والده، ما يكشف بُعدا من أبعاد شخصية الإمام وإدراكه لإهمية الجانب الاقتصادي والمالي في إنجاح مشروعه الإصلاحي.

وما من شك في أن الزاوية طوّرت فريقا متكاملا لإدارة المال واستثماره، فأعداد الوافدين والتلاميذ الذين ذكرتهم المصادر من أنهم ملأوا "زليتن ومصراتة والساحل حتى أجلاهم الأمير

خوفا من أن يقتسموا البلاد"، لا يمكن لسيدي عمران استضافتهم لوحده، سكنا وإعاشة ومتابعة.

- فريق الإدارة: مؤلف من كبار أصحاب الإمام المقربين منه، كابنه عمران وربيبه سيدي خليفة الشايبي وأقدم تلاميذه سيدي عمر بن حجا وخادمه سيدي خليفة الشوشين، فكثيرا ما تذكر المصادر أنهم يستأذنون للوافدين عليه للزيارة، كما تشير إلى أنهم من يتخذون القرارات الهامة ما يعكس الصلاحيات التي كانوا يمتلكونها لإدارة الزاوية، ودون شك فاكتساب مهارات الإدارة هي الأخرى يجب ألّا تمر دون التوقف عند قدرة الإمام على اكتشاف من لديهم مهارات خاصة بالإدارة من تلاميذه وتطويرها بالتدريب والدفع بهم لمجال العمل.
- إدارة البحث: تقوم بما يشبه ما تقوم به المراكز البحثية المعاصرة، فالمتمعن في رسائله التي وجهها لأتباعه في عدد من الأقطار خارج البلاد يرى بشكل واضح أنها ناقشت مشاكل وأزمات تعانيها تلك الأقطار، مثلا قضية الأوبئة في رسالته لأتباعه في تونس، ومظاهر اختراق النسيج الاجتماعي في رسالته لأتباعه في طرابلس، وفي كلها ينصح ويقدّم الحلول، ولابد أن حديثه عما تعانيه تلك الأقطار كان مبنيًّا على معلومات توفرت عن طريق رصد وتقصي ومواكبة لما يحدث حول العالم من خلال فريق متخصص، وأيضا يجب أن نتوقف هنا عند هذا الدور الذي يؤكد أن الإمام كان معاصرا ومعايشا لمشكلات عصره، ومفكرا كبيرا يقترح لها العلاجات والحلول.
- بالإضافة لكل هذا، لا بد من وجود إدارة علمية تنفذ خطط الإمام وبرامجه العملية والصوفية، فمن غير الممكن أن يتفرغ الإمام للتعليم والتربية الصوفية لوحده مع تعدد أدواره التي أشرنا إليها.

كما يمكننا اكتشاف أدوار ومهام قام بها الإمام وزاويته، فالمصادر تتحدث أيضا:

- عن دور تنموي، ومنه أن أحد تلك المصادر تحدثت عن رحلة للإمام في بر مدينة زليتن، التقى فيها رعاة يرعون قطعانا من الأغنام، وعندما سألهم، قالوا لهم هذه أغنام سيدي عبد السلام إلى آخر الحادثة التي بينت بشكل واضح بأن تلك المراعي يشرف عليها نجله سيدي عمران. وأول ما يلاحظ أن تلك الأغنام لم تكن للذبح لرفادة الوافدين على الزاوية وضيوفها، فهي لم تكن بجانب الزاوية بل في مراعٍ بعيدة جعلت الرعاة لا يعرفون شيخ الزاوية، بل كان اتصالهم بسيدي عمران رئيس إدارة المال والاستثمار، ما يعني وجود دور للزاوية في التنمية الزراعية، ويؤكد هذا بشكل

جلي تخصيص الإمام "أصحاب الفلاحة والاشتغال" من مريدي الطريقة وردا خاصا بهم، نص عليه في وصيته الكبرى، بل يعكس تخصيصه لـ"الطلبة والفقهاء والمشتغلين بتعليم العلم والنسيخة والنساخ" وردا خاصا بهم أيضا، دورا آخر للزاوية يتعلق بحركة نشر الكتب، وكذلك إقامة مجتمع صناعي، فالمشتغلون هم أصحاب الحرف والمهن.

والقول ما الدليل على علاقة الإمام وزاويته بالفلاحة ونشاط حركة نشر الكتب والحرف والمهن، فهي ظاهرة عامة في البلاد؟ الجواب عليه أن الأوراد عادة ما يخصصها الشيخ الصوفي لتلاميذه، وهو دليل كاف على أن هذه الأدوار الحضارية هي من إنشاء الزاوية وشيخها.

- عن دور الإمام والزاوية في تغيير كبير في اتجاهات ومضمون الحركة العلمية ليس في البلاد فقط، بل في العالم الإسلامي، فالعملية التعليمية التي اضطلعت بها الزاوية على يد الإمام تبدو مختلفة تماما عن السائد وقتها، فلو كان ينشر العلم في زاويته فقط فأي علم يحتاجه رجل مثل الشيخ سالم السنهوري كبير علماء المالكية في الأزهر، ومثله الشيخ مُحَمَّد بن عبد الرحمن الحطاب عالم الحجاز، والشيخ العاقب بن أقيث قاضي تنبكتو، فقد كانوا علماء قد يفدوا إليه، بل لم يفدوا إليه إلا لمناظرته وجلبوا معهم نقولا من كتب ومصادر وفتاوى أهل العلم. وجلي أن الإمام أدرك أن الوسط العلمي لا يعاني أزمة علم بقدر ما يعاني أزمة طريقة بحث ومنهج، فنجده يحوّل مستوى العَالِمَ من نظري إلى عملي للتفكير والنقد، ويلاحظ هذا في أغلب مناظرات من قدموا إليه، وهو جانب يستدعي السؤال والبحث عن منهج الإمام التعليمي.
- دور استشاري سياسي، فإجماع المصادر على أن أول عمل قام به مراد آغا إثر استقرار أمر البلاد له، أن سافر لزليتن للقاء الإمام، وتعكس نصيحة الإمام له بأن يأكل من عمل يده، وقبول مراد آغا النصيحة حيث عاش يأكل من مهنة النجارة، دليل على دور استشاري كان يقدمه الإمام لرأس السلطة السياسية. كما أن هذه الواقعة تعكس جوانب أخرى في شخصية الإمام كدرايته بأهمية الحفاظ على بيت المال من عبث رجال السلطة، ووعي منه بأهمية الجانب الاقتصادي لدعم الدولة الوليدة وقتها، وأيضا نفاذ استشارته لدى الحكّام.
- استمرار دور الزاوية بعد وفاة الإمام في الحفاظ على وحدة البلاد، فكل مصادر التاريخ الليبي تحدثت عن سفر الشيخ عبد الله المكني للأستانة وإقناعها بحشد حملة عسكرية لوأد تمرد يحي

السويدي، عميل منظمة فرسان القديس يوحنا، لكن أيا من تلك المصادر لم تذكر أن الشيخ عبد الله المكني هو تلميذ الإمام المباشر، ولو اطلعوا على رسالة الإمام إلى أتباعه في طرابلس لوجدوا من بينهم "الشيخ عبد الله بن مُحَّد المكني". فإذا الزاوية كان لها الدور الرئيسي في إنقاذ البلاد من عودة فرسان القديس يوحنا الذين دعموا السويدي بالسلاح والمقاتلين ليمهد لرجوعهم، ويمكننا أن نفهم وزن الزاوية وثقلها السياسي الذي استدعى أن يجعلها فرسان القديس يوحنا أول أهدافهم عندما وجهوا السويدي لمهاجمتها وتدميرها وقتل شيخها سيدي عمران وغالب علمائها.

- قصائد الإمام المزدحمة بالنداء والاستغاثة بالمئات من أعلام ورموز الأمة الإسلامية، ألا يمكن أن تعكس عملا من أعماله في الدعوة للوحدة الإسلامية، فكل هؤلاء الأعلام لهم أتباعهم، سواء كانت تبعية صوفية أو علمية، حيث لم يقتصر نداؤه على الصوفية فقط بل أيضا على المحدثين والعلماء، مثل "البخاري والشيخ سيدي مسلم"، بل والمؤرخين مثل "ابن خلكان" في السلسلة الجوهرية.
- يجب عمل دراسات وبحوث لمقارنة المستوى العلمي للزاوية بالمدراس الكبرى في عصر الإمام، فمن المؤكد أننا سنصل إلى نتيجة مفادها أنها كانت جامعة بالمعنى المعروف حاليا، لم يقتصر دورها على التعليم فقط، بل خرجت قيادات تربوية، وأهلتهم للأداء الفعال والإنتاج القادر على المنافسة العالمية.

(4) لن تفلحوا، فـ"ليبيا" تحب "الأسمر" وهو يحبها

لم ينتمِ الإمام الأسمر يوما لغير بلاده، ولا تزال مقطعاته وموروثه الشفهي تعزز الحس الوطني في وجدان أتباعه ومحبيه، وتخلق ثقافة الانتماء للوطن، ومن أقواله الشهيرة :

"طرابلس بلادي، وأولادها أولادي، فمن لم يثق في أورادي لا يفلح هنا ولا غادي".

"قد أعطيت لي البلقاء (طرابلس) بحذافيرها .. فمن أعرض عن طريقتي، وحاد عنها، لم تصلح له مصلحة في دينه ولا دنياه".

ويقصد الإمام بطرابلس كل البلاد، فلم يظهر في وقته مسمى البلاد الحالي حيث كانت الأقطار تسمى بأكبر مدنها، كما نُسبت إفريقية لأكبر مدنها وصارت تسمى تونس، وكذلك الجزائر، والعديد من الأقطار الأخرى، ولو كان يتحدث عن الانتماء لمنطقة أو جهة لكن الأولى به الانتماء لبلدته زليتن.

وبغض النظر عما قد يبرزه هذا الكلام وغيره الكثير في مقطعاته الشعرية من أبعاد غائبة في شخصيته الفريدة المتميزة، لكن يهمنا منها دلالة هذا الكلام على حرصه على إشاعة الانتماء للوطن وخلق الحس الوطني في مريديه، فمن غير المنطقي أن يحمل هو، رضوان الله عليه، كل هذا الحب الجارف لبلده ولا يعمل على ترسيخه في وجدان أتباعه، بل وأكثر من ذلك حبه لأهل وطنه كافة (وأولادها أولادي) دون فرق بين محسن ومسيء.

وما هي أوراده التي لن يفح من لا يثق فيها، إنها بكل بساطة (ورد الطلبة والفقهاء والمشتغلين بتعليم العلم والنسيخة والنساخين)، و (ورد أصحاب الفلاحة والاشتغال)، كما أوضحها في وصاياه، والمتأمل في الوردين يدرك بجلاء ووضوح تجلي هذا الحب العمق لبلده في جهوده لبناء نهضة حضارية أسسها على رافدين، وهما العلم والعمل؛ فالورد الأول دل على ازدهار حركة التعليم وكثرة المتعلمين والعلماء، ومن مؤشرات هذا الازدهار وجود مهنة نسخ الكتب والناسخين ما يعني رواج الكتاب والكتبيين في زاويته.

أما الورد الثاني فهو للرافد الثاني، وهو الجانب العملي، ورد المشتغلين بأصناف من حرفيين ومهنيين وفلاحين، وهو مؤشر آخر على جهوده الجبارة في ايجاد حركة بناء وعمل في البلاد، وإلا فما الداعي لتوظيف أذكار خاصة لمن يزاولون أشغالاً ومهنا إن لم يكونوا موجودين وفاعلين في المجتمع. إذا لم تكن الزاوية للذكر والتعليم فقط، بل لدعم العمل بمختلف أشكاله من مهن وحرف وازدهار كبير للفلاحة

والزراعة في البلاد، وهو ما تؤكده مصادر تلك الفترة، فالرحالة والمؤرخ الإسباني مارمول كاربخال الذي مر على زليتن في عام وفاة الامام، قال إن سكانها يتمتعون برخاء، بل يزاولون مهنة التجارة عبر البحر لتبادل تمرهم بما يحتاجون إليه من بضائع.

وكيف يفلح من لا يثق بأوراد هذا الإمام والوطني العظيم، فلنا أن نتصور مدى دقة وجودة إنتاج الفلاح والمهني والمتعلم والنساخ والعالم، وهم يعملون وقلوبهم مرتبطة بالله بأذكار وظفها لهم رضوان الله عليه .

وبوعي قل نظيره نجده يحدد نتيجة من لا ينتمي لوطنه بقوله (لا يفلح هنا ولا غادي)، ولنا أن ننظر لحال أهل تلك الطائفة المتحجرة المتخلفة لنجد الواحد منهم يعيش (هنا) في هذه البلاد، وينتمي لأرض نجد (غادي)، فلا هو منا ولا منهم، فهل رأت الأمة من هذه الطائفة أي فلاح ؟ !!

تعالوا يا مدعي السنة لتتعلموا من الإمام الأسمر كيف تُفهم السنة وتُطبق، فجده سيدنا رسول الله ﷺ، علم البشرية حب الوطن والانتماء له، فقال عن بلده مكة المكرمة: "ما أطيبَك من بلدٍ، وما أحبَّك إليّ"، ولما أن هاجر إلى المدينة المنورة دعا: "اللهم حبِّبْ إلينا المدينةَ كحُبِّنا مكةَ أو أشدَّ "، بل وأحب حتى الجزئيات والتفاصيل، فـ"أحد جبل يحبنا ونحبه"، وتراب أرض الوطن بلسم شافي لسكانه "بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن الله"، ونسب كبار أصحابه كل لوطنه، فهذا بلال الحبشي، وذلك صهيب الرومي، وسلمان الفارسي، رضوان الله عليهم جميعا.

لقد فهم الإمام الأسمر السنة الشريفة كما يجب أن تُفهم وتُطبق، فانتمى لوطنه كما انتمى صاحب السنة جده ﷺ، وبعد كل هذا يأتي من يعيب علينا نعته بقطب رحى حياة البلاد وغوثها، ويدعونا لترك سنته، سنة جده، لنتبع فكرا صحراويا جامدا لا حياة فيه كله فرقة وتكفير وتهجير باسم السنة والسلف.

ليبيا – يا هؤلاء – لا تزال تحب الإمام الأسمر ويحبها، فقد ملكها بالحب فانصاعت له "بحذافيرها"، وكما أرادها "بلقاء" شديدة البياض، ستكون بإذن الله، لا كما يريدها من يقف وراءكم ويدعمكم بأموال ذهبه الأسود.

ليبيا التي أسس لها الإمام الأسمر في طرابلس "البلقاء"، ثم تبعه الإمام السنوسي في الزاوية "البيضاء" في الشرق، ورجال التصوف في الجنوب بمؤسساتهم وزواياهم، كزاوية سيدي امُحَّد الزين في "الأبيض."

ليبيا ستنهض يوماً لتنفض عنها غبار صحراء نجد الدخيل، وتسفر بوجهها "الأسمر" الجميل الوضاء الأصيل.

(5) تراث الأستاذ الأكبر سيدي عبد السلام الأسمر .. أكبر مصادر ومراجع تاريخ ليبيا

تعاني ليبيا نقصاً كبيراً في مصادر ومراجع تاريخها المكتوب؛ فأقدمها "التذكار" للشيخ مُحَّد بن غلبون (من رجال القرن 12 هـ 18 ميلادي)، و"المنهل العذب" و"نفحات النسرين والريحان" كلاهما للشيخ أحمد النائب (ت 1336 هـ 1918م).

والواقع أن بلادنا غنية حد الثراء بمصدر يُعد من أعلى المصادر ثقة، وأقصد به التراث الشفوي للإمام سيدي عبد السلام الأسمر، رضوان الله عليه، بما فيه من تفاصيل وأحداث وأسماء أعلام ليبيين، وتوثيق لأنماط العيش والحياة الاجتماعية والثقافية من زوايا وأبعاد أهملتها المدونات التاريخية المكتوبة.

يقول علامتنا سيدي أحمد القطعاني "نظم سيدي عبد السلام الأسمر ﵁ أكثر من 700 قصيدة عروضية باللغة العربية الفصحى، و400 مقطعة شعرية باللسان الدارج ، و800 قصيدة على موازين سيدي الششتري، و500 قصيدة على موازين سيدي الجعراني، وآلاف القصائد الملحونة لتكون أكبر مرجع ليبي محفوظ للعلوم الإنسانية الليبية، ومع هذا لا أجرؤ على تسميته أكبر عالم أو أديب أو مؤرخ لأنه بالفعل أكبر من هذه الصفات مجتمعة".

ونحن ننبه على أهمية التراث الشفوي للإمام، تزامنا مع تراجع سيطرة مدرسة النص والوثيقة في مناهج البحث التاريخي في العصر الحالي لصالح مدرسة قراءة المصادر البديلة، وعلى رأس تلك البدائل التاريخ الشفوي، وعودة الاهتمام بشكل كثيف بالأراشيف الشفوية القديمة والتفكير في تطويرها بالبدء في تسجيل شهادات الحاضر ليستمر رصيدها ويقويها كمادة مصدرية للبحث، وتأسست تبعا لذلك نظريات فرّعت علوماً جديدة كعلم اجتماع المعرفة والتاريخ الاجتماعي وتاريخ الأفكار، بدأت جزرا منفصلة وها هي اليوم – لدى الآخر بالطبع – تتكامل لنتج معارف يؤسس عليها من يعي أهمية التاريخ مستقبله، أما نحن فلا دور لنا سوى الاجترار والتقليد وترك ما بين أيدينا من نفائس وكنوز.

كل العالم اليوم بات يعرف "حي الشيخ جراح" في القدس الشريف، وكيف استطاع أهل القدس تحويل ضريحه وزاويته إلى وثيقة تاريخية صدت محاولات الاستيطان الصهيوني والتهويد، وكيف انبرت الذاكرة المحلية، المزدحمة بالمرويات الشفوية طيلة 900 سنة عنه، لتفرض اسم "الشيخ حسام الدين بن عيسى الجراح"، تلميذ القطب الأعظم سيدي عبد القادر الجيلاني، قيمة وطنية في خطابات الساسة والقادة

حول العالم ومحل اهتمام نشرات الأخبار، أحبطت كل أشكال ومحاولات تحويل الحي إلى مستوطنة يهودية، وهو ما أدركه الصهاينة عندما سعوا لاستهداف ضريحه وزاويته القادرية.

مئات القصص والأخبار طالعها العالم عن الشيخ الجراح، لم يكن مصدرها سوى الذاكرة المحلية بما تحمله من مرويات شفوية، فلو بحثنا في مصادر التاريخ المكتوبة لما عثرنا على أكثر من ستة أسطر في ترجمته الخالية من أي حديث عن الزاوية الجراحية ودورها، لكننا سنجد مئات الروايات التي يتناقلها أهل القدس حول الزاوية منذ قرون والى اليوم، ومن حلّ فيها ودرّس وتخرّج، ولا أدلّ على دوره الزاوية العظيم من بقائها حتى اليوم رغم مرور تسعة قرون على تأسيسها.

لقد خطا جيراننا، في أقطار إسلامية وغربية مجاورة، خطوات مهمة لحفظ تاريخهم الشفوي غير المكتوب، فتجد بعضهم بادر إلى تسجيله منذ أن أعلنت منظمة اليونيسكو عن قائمة التراث اللامادي العالمي، كما فعلت الجزائر إذ سجلت الزاوية الشيخية وركب أولاد سيدي الشيخ وما حولهما من تراث غير مكتوب، وكذلك المغرب ومصر وغيرها، أما نحن فحالنا اليوم حال عقوق عجيب لأسلافنا وتراثهم رضوان الله عليهم.

ومن يحتج على قيمة وأهمية التراث الشفوي فله أن يتذكر أن أهم مصادر ومراجع التاريخ الإنساني كتبت من واقع روايات شفوية، وأولها وأشهرها تاريخ هيرودوت الذي وثق تاريخ أقطار وبلدان بعيدة لم يزرها من خلال مسموعاته عمن رآها وزارها، وأهم منه أن أغلب المعارف والعلوم الإسلامية وصلت لمدونيها من أسلافنا الكرام، بواسطة الرواية عبر سلاسل الإسناد وتطورت حولها علوم جليلة تعكس اهتمامهم بها؛ كعلم الجرح والتعديل وعلوم الرجال بمختلف فروعها.

لقد توفرت في إرث الإمام سيدي عبد السلام كل شروط الاهتمام به لتكون مصدرا تاريخيا هاما، فتجد في تراثه عملية النقل والتحقيق والتحليل والمقارنة، كما أنه رجل أجمعت الأمة الإسلامية على إمامته، يقول العالم الحجازي سيدي عبد الرحمن بن علي الشريف المكي، في كتابه الصغير، عن الإمام "ولو عاش بعد ذلك لاتخذه المشارقة والمغاربة مذهبا لعلو ذوقه".

وتزيد أهمية التراث الشفوي للإمام إذا عرفنا أنه غطى قرناً من الزمان؛ إذ ولد رضي الله رضوان الله عليه عام 880 هـ وتوفي عام 981 هـ، وبذا فقد عاصر نهاية الفترة الحفصية ثم الاحتلال الإسباني ومنظمة فرسان القديس يوحنا والفترة العثمانية الأولى، فغطى تراثه الشفوي كل تلك الفترات.

وأنتهز هذه السانحة لأنبه إلى جوانب في شخصية الإمام وزاويته لا تزال تحتاج بحوثاً عميقة تتجاوز مخلفات طريقة تفكير العقول المستوردة – سواء تلك العقول التي صاغت المناهج الغربية الحداثية طريقة تفكيرها عبر مئات الموفدين على الجامعات الغربية أو العقول التي حجرتها الوهابية وأوقفت عملها في حدود منتجات القرون الموغلة في القدم – وعلى سبيل المثال لا الحصر:

- المدرسة الفنية الليبية الخالصة والفريدة التي أرسى معالمها الإمام، فلم يُسبق إلى هذا النمط في فنون قريض الشعر، واستخدمه لآلة "الدف" بشكل متقدم وفريد. ولنا أن ننظر في خدمة إخواننا الشوام والأتراك لتراث مولانا جلال الدين الرومي، فمن يعتقد أن أشعاره في "المثنوى" نظمها بلغة فصيحة فهو مخطيء لأن الناس تقرأ ما في المثنوى من خلال ترجمته للغات الأخرى ولو بحثوا في أصله لوجدوه نظمها بلغة عامية دارجة مصحبة بعزفه على آلة "الناي"، التي تقابل في تراث الإمام سيدي عبد السلام بآلة "الدف".
- ويمكن التفريع من المثال السابق بحوثا عن طريقة تقديم سيدي الإمام لرأيه في المسائل الخلافية بشكل عملي تطبيقي، مثلا حول مسألة الفنون والموسيقى المختلف حولها بين فقهاء الإسلام، والأمثلة كثيرة في هذا الجانب.
- الكم الكبير من المناظرات التي احتواها تراث الإمام الشفوي مع عدد لا يحصى من علماء البلاد وخارجها، وطريقة مناظرته التي أرسى فيها قواعد خاصة في البحث والمناظرة وأخلاقياتها، بدلا من استحضار النصوص وبحث أدلتها وتوجيهها والأخذ والرد.
- قضية "الدف"، لوحدها تحتاج غوصا وعمقا، فليس من المنطقي أن يسافر إمام المالكية في الأزهر سالم السنهوري من القاهرة، والشيخ الحطاب من مكة، والعاقب بن أقيث من تنبكتو من أقصى مجاهل أفريقيا، كلهم وغيرهم إلى زليتن، في تلك الظروف القاسية حيث يضطر الواحد منهم لقضاء الشهور مسافرا، فقط ليناظروا الإمام حول شرعية ضرب "البندير" وإنكاره عليه، وقبلهم والي طرابلس الإسباني يُقدم على نفيه ثم يلاحقه بجيش لجب لحصاره في منفاه في "قلعة" سوف الجين فقط لأنه يضرب البندير!، فالأمر يستدعي دراسة أعمق وأوسع حول قضية "الدف" الذي صار علماً عليه رضوان الله عليه، وقد نبه شيخنا العلامة د. أحمد القطعاني، رحمات الله تترى عليه، إلى بعض الجوانب المتعلقة بهذه القضية في مقال له عنوانه (وانتصر

بندير سيدي الشيخ عبد السلام الأسمر وقصائده وموسيقاه على ترانيم الكنيسة) ، وكان آخر مقال له في سلسلة (مقالات أهل الحق) التي كان يكتبها يوم 23 / 8 من كل عام.

(6) النبيل "سيدي عبد الله نبيل" الإدريسي، رمز ليبي، ووصلة من وصلات الهوية الليبية المغاربية

خلاصة نخبة الأولياء والعلماء والصلحاء، شهير الصيت الماجد وأصيل البيت الحافد، فخر المجد الإدريسي الحسنى النبوي، سيدي الإمام عبد الله نبيل بن عمران، يرتفع نسبه الصحيح الوثيق إلى سيدي الأمير عبد الله الناسك بن سيدي إدريس الأنور بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن سيدنا علي، والسيدة فاطمة الزهراء بنت سيد الأولين والآخرين سيدنا مُحَّد صلى الله عليه وآلة وسلم.

شخصية إسلامية عظيمة ذات أثر ثقافي وعلمي واسع، بدأ من مدينة "أغمات" في أقصى المغرب العربي ليصل إلى الحجاز حيث توفي ودفن في البقيع المكرم، وعبر سلسلة من تنقلات اختار ليبيا ليستقر فيها فترة من الزمن، وأنعم عليها بأن ترك فيها نسله الشريف الذي لا يزال يتواتر سيدا بعد سيد إلى اليوم وإلى ما شاء الله، ومنهم خيرة أخيار علماء هذه البلاد ومصلحيها الذين يخرجنا سرد أسماء المصلحين منهم عن موضوعنا.

سأنقل في هذه المقالة مقتطفات من سيرة سيدي نبيل العطرة الزكية في شكل نقاط مختصرة، للتمهيد لترجمة سيدي سليمان الفيتوري، أحد أبرز أحفاده. ويفيد هذا التمهيد في التعرف ملامح مشروع أرجح أن سيدي نبيل وسيدي سليمان كانا يقومان عليه، كسائر المشاريع الصوفية الإصلاحية، ولا أزعم أنني استوفيت كل ما يتعلق بتاريخهما، وإنما هي ملاحظات أولية قد تدفع للاستجلاء الصحيح لسيرتهما ولرسم ملامح صورة دورهما الوطني.

هذه فقرات، لخصتها من دراسة مطولة لسيرة سيدي نبيل وسيدي سليمان، أسأل الله العظيم أن يمد في العمر ويبارك في الوقت لإتمامها، وأعتقد أنها فقرات كافية حاليا لتوصيل الفكرة التي أرمي إلى توضيحها:

- بعد انحسار دولة الخلافة الإدريسية، تفرقت فروع الإدريسيين موزعين على أكثر من مكان، ومن بينهم فروع من أصل السيد عبد الله بن إدريس، توطنوا في أغمات ومحيطها، وحاولت شخصيات من هذا الفرع إعادة بناء الدولة بالتحالف مع بني خزرون.
- هاجر سيدي عمران الإدريسي، أحد رجال فرع سيدي عبد الله بن إدريس، بكامل أسرته من أغمات مشرقا حتى وصل إلى بادية تونس الجنوبية، حيث يعسكر سعيد الخزروني، أحد بقايا

الخزرونيين، ورجع سيدي عمران إلى أغمات بعد أن ترك أسرته، ومن بينهم ابنه سيدي نبيل، في حماية بني خزرون، ولم يرجع معه إلا ابنه الآخر، أخ سيدي نبيل، واسمه سليمان وهو الجد الأعلى للسادة الأمغاريين الذين حاولوا أيضا استعادة الدولة الإدريسية جنوب المغرب.

- من الواضح أن إبقاء سيدي عمران لأسرته في حماية بني خزرون له علاقة بالحلف القديم بينهم وبين أجداده.
- برز من أبناء أسرة سيدي عمران، ابنه سيدي عبد الله، الذي لقبه الناس بـ "النبيل"، الذي يعني العريق في الشرف، ما يدل على مكانة سامية عاشها سيدي نبيل بين أقرانه وفي أوساط بقايا الأسر الإدريسية، وهي المكانة الذي دفعت زعيم الخزرونيين للتصاهر معه بالزواج من ابنته.
- حاول الخزرونيون استغلال مكانة سيدي نبيل سياسيا، كونه من رجال آل البيت البارزين، لاستمالة العبيدين الشيعة لصالحهم، في إطار تنافسهم مع بني زيري الذين حظوا في أول أمرهم بثقة العبيديين وأصبحوا يحكمون تونس وما جاورها باسمهم، لكن سيدي نبيل رفض هذا المشروع السياسي الذي يقضي بأن يصل من خلاله الخزرونيون باستغلال "الإرث الإدريسي"، الذي يمثله هو، للوصول إلى سلطة تخدم الفكر الشيعي العبيدي المتطرف، كما هو معروف الخلاف الفكري بين الأدارسة والعبيدية، بل عدم التلاقي الفكري من أصله بينهما.
- هاجر سيدي نبيل أرض الخزرونيين، جنوب تونس، لتأكيد رفضه استغلال مكانته و "الإرث الإدريسي" في مشروع سياسي للتزلف للعبيديين الشيعة، وأقام في حواشي طرابلس قريبا من مدينة الزاوية، لكن الخزرونيين أعقبوه على أسرته بعد سفره مشرقا للحج، وأفنوا كامل الأسرة إلا ولدين.
- تقول كتب التاريخ إن الخلاف بين سيدي نبيل والخزرونيين وهجرته لهم، كان سببه رفض تزويج ابنته "فاطمة الزهراء" لابن سعيد الخزروني، لكن هذه الرواية لقيت تحفظا من المؤرخين العلامة الطاهر الزاوي والعلامة أحمد القطعاني، فالعقل لا يقبل أن تتعقب قوة كبرى كالخزرونيين شخصا رفض تزويج ابنته لهم بعد سنوات من هجرته ومرورا بكل هذه المسافات من تونس إلى طرابلس للانتقام منه.

- التتبع والرصد والقراءة تشير إلى أن الرواية تتضمن دلالات وأبعادا أخرى لتوظيف ديني سياسي، خصوصا إذا تنبهنا إلى أن ابنة سيدي نبيل اسمها "فاطمة الزهراء"، فباعتقادي أن قضية زواج البنت تضمين من كتب التاريخ لقضية أوسع من ذلك تتعلق بمشروع كان ينهض سيدي نبيل بأعبائه ويتعلق بالأصول الشريفة لدولة أجداده المتصلة بالسيدة "فاطمة الزهراء" بنت سيدنا رسول الله، التي ادعى الشيعة العبيدية انتسابهم لها، ولذا فتضمين هذا الاسم في الحادثة والإشارة إلى أن اسم البنت "فاطمة الزهراء"، على علاقة واضحة بمحاولة استغلال الخزرونيين لنسب ومكانة سيدي نبيل في التزلف للعبيديين، كما أن تعقبهم له والبحث عنه ومحاولة إفناء كامل أسرته المقيمة قريبا من مدينة الزاوية، ربما للقضاء على مشروع يبدو أن سيدي نبيلا بدأ في بناء أسسه الأولى في موطنه الجديد، قريبا من طرابلس، فأول ما استقر قريبا من الزاوية بنى مسجدا وبيتا لأسرته دليلا على عزمه الاستقرار فيها، والخزرونيون سيرونه منافسا قويا لهم إن نجح، خصوصا أنهم بدأوا وقتها في قرع أبواب طرابلس لاحتلالها وحكمها، وبالتالي كان عليهم إجهاض مشروع سيدي نبيل.
- إقامة سيدي نبيل قريبا من طرابلس، لا يبدو أنها لمجرد الإقامة فرارا من خطره يتهدده، بل إقامة دائمة للإعمار وإقامة معقل له فيها، فتفاصيل واقعة هجوم الخزرونيين على أسرته من بعد رحيله التي تتضمن الإشارة لتخبئة زوجته ولديها، أحدهم في شجرة "عوسج"، والآخر في بقايا زيتون في معصرة، فالعوسج يشير الى أن المنطقة يغلب عليها الطابع الصحراوي، وربما حتى خلوها النسبي من السكان، لكن في المقابل يؤشر وجود الزيتون، بل إقامة صناعة عليه بدليل وجوده معاصر الزيتون، على وجود نهضة زراعية لإزاحة التصحر من المنطقة، وأكثر من ذلك بناء سيدي نبيل مسجدا بالمنطقة فور وصوله إليها، وكلها دلائل على سعيه لإقامة معقل له.
- من الواضح أن هذا الحلف المرتبط منذ فترات طويلة بين الأسر الإدريسية في أغمات وبين الخزرونيين، واستمر فيما بعد بين سيدي نبيل وسعيد الخزروني وأولاده من خلال منحهم حمايتهم له ولأسرته، أوهمت كثيرا من المؤرخين فظنوا أن سيدي نبيلا وعقبه الفواتير والعواسجة منهم، وصاروا ينسبونهم "السعيدي المخزومي"، وهي دون شك نسبة خاطئة، خصوصا أن بعض المؤرخين كانوا أكثر دقة عندما أضافوا عند حديثهم عن سيدي نبيل عبارة "ذوي حلفة فيهم"،

لكن الأمر تسلسل فيما بعد دون تحقيق وانتباه فتم تحريف "الخزروني" إلى "المخزومي"، والشواهد على خطأ هذا الخلط كثيرة:

- أولها، إذا كانت نسبة "السعيدي" إلى بني مخزوم، فلم يعرف لبني مخزوم سعيد ينسب له فرع يقال لهم "السعيديون"، كما لم يذكر التاريخ أن للمخزوميين قوة ومنعة كما هي لبني خزرون، بل لم يذكر للمخزوميين قوة مستقلة عن الأعراب والدول، يمكن أن يقارب معها كل ذلك مع التفاصيل والأحداث في علاقة سيدي نبيل بحلفائهم الذين نزل بينهم ثم اختلفوا لدرجة ملاحقته ومحاولتهم إفناء أسرته.
- وإذا كانت نسبة "السعيدي" للهلاليين، فبني سعيد الهلالي هم أولاد سعيد بن رياح، وكل فروع الرياحين كما ذكر ابن خلدون نزلوا بين المغرب والجزائر، وما جاءوا لطرابلس إلا في عهد زعيمهم مسعود بن زمام في العقد التاسع من القرن السادس الهجري، وتنقلوا بين أبناء عمومتهم زغب وذباب، وقاتلوا مع قراقوش في طرابلس ثم ناصر ابن غانية المسروقي، وكل هذا متأخر جدا عن عهد سيدي نبيل وحلفائه الخزرونيين.

هذا السرد، أحببت من خلاله أن أصحح خطأ شاع بين الهواة والمتعصبين من دارسي علم الأنساب، تشبثوا فيه بأخطاء نساخ الكتب القديمة دون تحقيق، فالصحيح أنها نسبة حلف، ول "السعيدي الخزروني"، وليس لـ" السعيدي المخزومي."

بعد هذا التمهيد للتعريف بـ" سيدي نبيل "، سنحاول في المقال القادمة استجلاء صورة حفيده" سيدي سليمان" ودوره الوطني الكبير.

(7) القائد الوطني والسياسي سيدي سليمان الفيتوري

سأكتفي هنا أيضا بسرد فقرات من محطات حياة سيدي سليمان الفيتوري الإدريسي، وأعتقد أنها كافية لتكون مقدمة تثير المزيد من الأسئلة في سيرته الكريمة وتستنهض همم الباحثين، كما تنبه على أهمية المصادر المحلية التي لا تزال مهملة حتى اليوم لإعادة قراءة وكتابة التاريخ الليبي من زاوية محلية:

- ولد "سيدي سليمان الفيتوري الإدريسي"، بغرب مدينة الزاوية في 12 ربيع الأول 488 هـ (21 / 3 / 1095م)، وتوفي شهيدا في طرابلس يوم 17 ذي الحجة 537 هـ (2 / 7 / 1143 م)، ونشأ في أحضان أسرته الزاخرة بالعلماء، فحفظ القرآن على يد والده، وتفقه عليه وعلى علماء أسرته الفواتير والعواسجة النبيليين الأدارسة .
- ورث عن أجداده أحلافا وارتباطات مع القوى النافذة في غرب طرابلس وشرقها، وهاجر الى مدينة زليتن عام 504هـ، بعد تعرض غرب طرابلس لغزوات متتالية من أنصار حميد بن جارية الوشاحي .
- نزل في ضيافة حلفائه العمائم السليميين بزليتن، الذين كانوا في صراع مع العوامر أحد فروع الهلاليين فتعرض بسبب حلفه مع العمائم للتضييق، لكن حلفه مع صديقه الشخصي الشيخ عزاوي العمامي، الذي كان اسمه عين معناه، وفر تحالفه معه حماية فكان خير عِزوة له، رضوان الله عليهما .
- ولد له سيدي يعقوب غرب مدينة الزاوية قبل هجرته إلى زليتن، فيما ولد له في زليتن أولاده الآخرون وهم السادة: مُحَمَّد الكبير، ومحيا، وعبد الله، وعبد العزيز، وعبد الواحد، ومُحَمَّد الصغير .
- تعددت أدواره وجهوده، فبيته في "قرارة اللجمة" زليتن (محل روضة أولاده في السبعة بزليتن) معقل علمي صوفي، كما كان معقلا لحشد الجهود لبناء كيان سياسي يوحد المنطقة بكاملها، دفاعا عن الدين والوطن، ولذا لم يدخل في صراعات مع كل من عارضه أو ضيق عليه، كالعوامر الذين يبدو أنهم رأوا فيه منافسا لسلطتهم في المنطقة، أو حميد بن جارية وأحلافه في غرب طرابلس.
- يبدو أن التغيرات في محيط البلاد لم تترك له فرصة إكمال مشروعه السياسي، خصوصا الأحداث الدائرة في البحر المتوسط وصعود قوى جديدة بدأت في الصراع مع قوى أخرى، منها

النورمانديون في صقلية الذين حولوا البحر المتوسط إلى بحيرة نورمانية حيث وصلت غزوات أساطيلهم للسواحل المغربية، واحتلوا قابس، بالإضافة إلى أن طرابلس نفسها كانت تعج بالخلافات على السلطة .

- شكل سيدي سليمان قوة عسكرية على رأسها 11 قائدا تحت أمرته، لصد حملة روجر الثاني النورماندي على طرابلس، وتمكن بالفعل من صدها بعد مقاومة دامت لأيام، قبل أن يندحر روجر في آخر معركة استشهد فيها سيدي سليمان يوم 17 ذي الحجة عام 537هـ .
- وقوع معركة صد غزو روجر النورماندي على ساحل البحر في طرابلس، وتحديدا عن سيدي عبد الله الشعاب، يدل دلالة واضحة على استمرار الدور العسكري الدفاعي لرباط سيدي الشعاب المتوفى عام 243 هـ إلى القرن السادس، وهو دليل آخر لا يقبل النقاش على الدور الدفاعي والعسكري الذي قام به السادة الصوفية طيلة أربع قرون للدفاع عن طرابلس، وأنهم كانوا حماتها وليس غيرهم .
- ارتبط سيدي سليمان بالعديد من القوى المحلية وشكل معهم أحلافا، ما يؤشر بوضوح على انخراط قادة طرابلس وغربها وشرقها في مشروعه الذي يهدف إلى بناء كيان سياسي موحد، ومنهم "بنو جامع" الذين كانت لهم السيطرة في طرابلس، فهم من أرسلوا لأهل القرى والمناطق المجاورة لطرابلس لطلب العون على حملة روجر، وإن كان ابن خلدون لم يسمِّ قائد تلك القوة التي جاءت لنجدة طرابلس عند قوله إن بني جامع استنجدوا "بالعرب فأنجدوهم وخرجوا إلى الإفرنج فهزموهم وغنموا أسلحتهم ودوابهم ورجع الإفرنج إلى صقلّيّة" إلا أن وجود سيدي سليمان على رأس تلك القوة لا يدع موضعا للشك في وجود صلة وثيقة وحلف له مع بني جامع، وإلا لماذا لم يطلبوا النجدة من غيره .
- تتداول كتب التاريخ والمصادر أن سيدي سليمان أرسل أكبر أولاده إلى الحج، وطلب منه أن يُقرئ سلامه لرجل في مسجد المدينة المنورة وصفه له، وفعلا سافر ابنه إلى الحج ووقع على ذلك الرجل بوصفه داخل المسجد النبوي وفعل ما أمره به والده، فعزّاه ذلك الرجل في والده، وقال له إنه توفي في جهاد النصارى بطرابلس، فشكى له الابن ضعف إخوته الذين تركهم وراءه في زليتن يواجهون لوحدهم ظلم وإجحاف العوامر من بني هلال، فسأله الرحل المدني كم أنتم، فقال له

"سبعة"، وكم هم، فقال لهم "سبعمائة، فدعا الله أن يكون أولاد سيدي سليمان سبعمائة، وخصومهم سبعة. وهي واقعة أجمعت كل المصادر على نقلها على سبيل كرامة أهل الله، لكنني سأتوقف عندها للحظات منبها على زوايا يمكننا النفاذ منها لكشف ما تختزنه من معلومات، ودوما ما أنبه على ضرورة تفكيك حوادث كرامات أهل الله وأنها مدونة من مدونات التاريخ الصوفي :

– لماذا أرسل سيدي سليمان ابنه إلى الحجاز، ومن هو ذلك الرجل الذي وصفه له، وطلب منه أن يسلم له عليه، ولماذا لم يسمه له واكتفى بوصفه فقط؟

– من غير المنطقي أن يرسل سيدي سليمان ابنه إلى الحج فقط ليعلمه بوفاته عبر شخص في الحجاز، ولو كان مقصده ذلك فالبلاد مليئة بالصلاح من أهل الكشف الصريح، بل صلاح الابن بنظره الثاقب لأستار الغيب كاف، والأولى ترك ابنه لحماية أبنائه الآخرين فهم بحاجة كبيرة لذلك.

– باعتقادي أن مشروع سيدي سليمان أوسع بكثير من الجهة والقطر، ويبدو أنه كان على اتصال وثيق بالعديد من الشخصيات حول العالم الإسلامي، وفي الأقطار المركزية كالحجاز، لقيادة مشروع سياسي عربي وإسلامي أوسع، خصوصا أن الحجاز كانت تعاني وقتها في عهد أميرها هاشم بن فليتة المهنوي من ضعف كبير، وصراعات القوى للسيطرة عليها .

– إحاطة الرجل الذي قصده الابن في المدينة المنورة بشيء من السرية، لحد اكتفاء سيدي سليمان بوصفه دون ذكر اسمه، ولو كان إمام المسجد النبوي أو أمير المدينة وقتها، وهو الأمير الحسين بن مهنا أو غيرهما لسمّاه له، لكنه فيما يبدو شخصية على علاقة بمشروع سياسي لا يزال في طور التحشيد والدعوة هناك، بينما قطع سيدي سليمان أشواط ومراحل متقدمة فيه في إقليم طرابلس.

– يجب الالتفات إلى أن عبد الله بن نبيل جد سيدي سليمان أقام معقلا لمشروع دولة بغرب مدينة الزاوية ترك فيه أولاده، وسافر مشرقا إلى الحجاز حيث توفي ودفن هناك، وكانت وفاته في فترة حكم المهنويين للحجاز أيضا، فهل لسفر سيدي نبيل إلى الحجاز وإرسال سيدي سليمان ولده إلى المدينة علاقة بينهما، وما فحوى رسالة سيدي سليمان، فأنا لا أنكر وقوع كرامة بين ذلك الرجل المدني وابن سيدي سليمان، حاشا والله، لكن لا يمكن أن يرسل سيدي سليمان ابنه مسافات طويلة وصولا إلى المدينة المنورة فقط لمجرد إعلامه باستشهاده في طرابلس، فلا بد من وجود تفاصيل أخرى لم تصلنا.

- من قضى على حكم المهنويين في الحجاز هم آل الشريف، ومن هذه الأسرة التي حكمت الحجاز لسنوات تالية، سيدي عبد الرحمن المكي الذي هاجر من الحجاز إلى زليتن لملازمة الإمام الأكبر سيدي عبد السلام الأسمر ورافقه في كل تفاصيل ومراحل بنائه لمشروعه الأسمري الدعوي، بل كان سفيره للأقطار الإسلامية، فالشيخ المكي يتحدث عن سفراته العديدة المشرقية، سيما للحجاز، وفي كل رحلة يعود لزليتن ومعه المئات من "الشاغفين بمحبة الأسمر"، فهل تكون هذه العلاقة استمرارا للعلاقات والصلات القديمة.

- سيدي سليمان شخصية مركزية، فيمكن القول بأنه كان قائد مشروع لبناء كيان سياسي، ولا يبدو أن المشهد وقتها يتوفر على شخصية جامعة لشروط القيادة تحل محله، فأولاده كما وصفهم أخوهم يتهددهم خصومه، وهم عوامر بني هلال، وما دعاء ذلك الرجل في المدينة أن يجعل الخصوم "سبعة"، وأولاد سيدي سليمان "سبعمائة" إلا استشعارا لخطر إجهاض ذلك المشروع.
- وفعلا يبدو أن هذا ما حدث، فقد تفكك الحلف، فبنو جامع تمكنوا من طرابلس بعد أن طردوا بني خزرون، وروجر الثاني بعد احتلالها في غزوته الثاني، واستقلوا بحكمها لفترة، كما تمكن العمائم من تشكيل كيان سياسي في شكل مشيخة، غرب طرابلس، عُرفت بمشيخة بني سالم استمرت لفترة طويلة.
- تبدو محاولات تنفيذ مشروع سيدي سليمان استمرت من بعده، فنجد أحد أولاده، وهو "سيدي عبد الواحد" الذي اشتهر بالفروسية، رحل إلى طرابلس، ثم أقام قريبا منها في ضيافة قبيلة الحواتم الترهونية، بعد أن تمكن لوحده من رد غزو بعض الأعراب على القبيلة في غياب شيخها، وباستثناء هذا الملمح لا نرصد شيئا عنه غير ذلك، إلا أنه حدث يؤشر على محاولة ما.
- تحمل كتب التاريخ ملامح عن استمرار علاقة عقب سيدي سليمان بدعم مشاريع إقامة كيانات سياسية بالمنطقة، فاعتقادي أن إقامة الإمام الأكبر سيدي عبد السلام الأسمر في جبل سوف الجين ببني وليد وبنائه مكانا يحمل مسماه بـ"القلعة"، دلالات عسكرية، وربما يكون على علاقة بمشروع سياسي آخر كان يحمل اسم "مشيخة بني تليس"، وهي مشيخة ورثت مشيخة بني سالم، وستزداد العلاقة وضوحا إذا ثبت أن المشيخة على علاقة بـ "سيدي أحمد أبوتليس"، أحد رجال الطريقة العروسية.

- كما أننا نجد علاقة تربط أحد أبرز حكام مشيخة بني تليس، وهو علي بن تليس، بعقب سيدي سليمان، فالروايات تشير إلى لقاء بين علي بن تليس بفيتوري خارج زليتن كانت بركته واعتقاده سببا في توسع ملك بن تليس، وبعد فترة نجد فيتوريا آخر جاهر بمعارضة جور علي بن تليس وإجحافه في فرض الجبايات على الناس، ولم يكن ذلك الفيتوري إلا سيدي علي قرفع، الولي الشهير الذي يدل محل دفنه داخل روضة أولاد سليمان على مكانته وتميزه في محطيه ومجتمعه، ولا يزال المكان الذي كان علي بن تليس يجمع فيه جباياته من الشعير والحبوب، وحصل فيه شتاته، يعرف حتى اليوم بـ "القاعة" في مدينة زليتن.
- ختاما، أقول للباحثين إن سيدي سليمان، ومعه أعلام ليبيا ممن هم في طبقته مسؤولية ووعيا بأهمية ترسيخ وتعزيز الانتماء، هم المكان والزمان والإنسان، وهم من بنى وحدة ليبيا التي انصهرت فيها أصولها الثلاث، المذهب المالكي والتصوف الشعابي والاعتقاد الأشعري، وضمنت لها وحدتها في غير عزلة عن مجتمعهم، بل انصهار تام فيه ومن أجله.

(7) "سيدي زلي" المجاهد، ورائد الإصلاح الاجتماعي

المجاهد والمناضل الوطني، ولي الله سيدي زلي، دفين مدينة زليتن، من سبق الاتفاقيات المعاصرة التي تدعي الريادة في مجال حماية المرأة في أوقات الحروب والنزاعات، وأسس أول دار لحماية المرأة.

وما تزال الذاكرة المحلية الليبية الصلبة تحمل وفاء منقطع النظير لسيدي زلي، وفي طياتها مرويات متواترة بقيت حية رغم مرور قرون عديدة على وفاته، ولا يزال ضريحه حتى اليوم وجهة لمحبيه وعارفي قدره، يقيمون له مزاراً سنوياً.

ورغم شحّ المعلومات عن حياته في كتب التاريخ، إلا ما توفر من معلومات في المصادر الشفهية تمكننا من رسم صورة لشخصيته الليبية الرائدة، فعلاقته الوطيدة بالمرأة من جانب، وملامح دور عسكري جهادي كان يضطلع به من جانب آخر، فيهما الكفاية لرسم صورة أولية عنه رضوان الله عليه.

وفي الجانب الأول ما حدثني به شيخنا العالم والمؤرخ الكبير سيدي د. أحمد القطعاني، من أن الأرامل والمطلقات ومن لا عائل لهن كن يلجأن لسيدي زلي ليذود عنهن عوادي الزمان والغزاة، بل وأكد لي أن العلاقة بين سيدي زلي والمرأة الليبية استمرت بينهما حتى بعد وفاته، منبهاً على ملمح من المهم ملاحظته وهو أن من يستقبل ضيوف سيدي زلي دوما ما تكون امرأة، فالزائر لروضته المباركة لابد وأن يجد امرأة من الصالحات معروفة بخدمته، فإذا ما توفيت شغلت مكانها سيدة أخرى، وآخر من عرفن بصلاحها وعلاقتها بروضته المباركة "أمي يزه الصفرانية" التي توفيت يوم 17 أغسطس 2020م، وفي ذاكرة رواد مزاره الكريم العشرات من أسماء السيدات الصالحات اللاتي سبقن أمي يزه.

بل رأيت شيخنا القطعاني يحث الكثير من مريداته من النساء على زيارة سيدي زلي، ويشدد على الحفاظ على علاقة الوفاء والاحترام المتبادلة بينهما، كقيمة من القيم الوطنية التي يجب ترسيخها وتعزيزها في وجدان الناشئة.

ولجوء النساء في عصر سيدي زلي لحمايتهن، لا يمكن أن يكون إلا لرجل ذي منعة وقوة وقدرة على إيوائهن، كما أن اللجوء لا يمكن أن يكون إلا من خوف طارئ وقتها.

كما ارتبط اسم سيدي زلي في الذاكرة المحلية بعلاقة بينه وبين أستاذ البلاد الإمام سيدي عبد السلام الأسمر، وإن كان جُل المرويات تتحدث عن عسكرة "جيش سيدي عبد السلام" عند سيدي زلي، إلا أن

قصائد سيدي عبد السلام، التي ما زلت أؤكد أنها مصدر تاريخي هام، تتحدث هي الأخرى عن ملامح حلف عسكري بينهما، كقوله:

أنا نصرتي من عند الوادي .. من عند سيدي زلي

يضاف إلى هذا العديد من القرائن، كموقع سيدي زلي في ربوة عالية مشرفة على المنطقة، ما يؤكد أنه رباط من الأربطة التي تزخر بها البلاد، لها وظائف عديدة كالمراقبة والرصد والدفاع، خصوصا وأن موقع هذا الرباط يأتي في مجال استراتيجي بالنسبة لكامل المنطقة وتقاطع الطرقات. ومن القرائن الأخرى وجود مدفن فرس سيدي عبد السلام والمعروفة باسم "سعيدة" قريبا جدا من مقام سيدي زلي، ويجب ملاحظة أن "سعيدة" فرس أهديت لسيدي عبد السلام في غريان التي انتقل إليها بعد نفيه من طرابلس، وكانت غريان أحد المناطق التي تشكلت فيها مقاومة للإسبان إثر احتلالهم لطرابلس، وبرأيي أن إهداء سيدي امساعد عبد المولى فرساً لسيدي عبد السلام على علاقة بظروفه ووضعه كقائد لمقاومة الإسبان.

كل هذه القرائن دلالات على علاقة بين سيدي زلي وأدوار المقاومة العسكرية الحاصلة في البلاد ضد الغزاة، ولا أستبعد أن يكون سيدي زلي معاصرا لسيدي عبد السلام، وإن كان ذكره له في قصائده يشير إلى وفاته في زمنه؛ فمن واقع دراستي لقصائد سيدي عبد السلام فهو عادة ما يرتب أسماء الأعلام في أبيات شعره باعتبار النسبة لمدرسة صوفية واحدة، أو باعتبار المعاصرة، يقول أحدها:

ناديت يا زروق ورجال منه فوق .. زلي ساكن العرقوب .. فزعهم ما ريناه

وباعتبار أن سيدي زروق أول شاذلي في كل بر طرابلس، فذكره سيدي زلي إلى جانبه في بيت واحد لا علاقة له بالانتماء لمدرسة صوفية واحدة، بل لتعاصرهما، كما أنني أرجح أن يكون سيدي زلي قد توفي قبل رجوع سيدي عبد السلام الأسمر من نفيه في "قلعة سوف الجين."

تبقى مسألة أخيرة، تتعلق بمحاولات اشتط فيها أصحابها، عندما حولوا المقاربة بين اسم سيدي زلي، ومنطقة في المغرب يطلق عليها "إزلي" بدلالة وجود مكان قريب منها اسمه "ازليتن"، ويحيلون بهذا إلى أن سيدي زلي ضارب في القدم، وأن اسم مدينتنا الليبية "ازليتن" مشتق منه، وهو كلام عار عن الصحة استند فيه أصحابه إلى كلام ذكره المؤرخ الاستعماري الفرنسي ليون غوتييه في كتابه "ماضي شمال إفريقيا"، وكعادة أغلب الباحثين في الوثاقة المطلقة في كل ما يكتبه الأجنبي دون تمحيص وتتبع يراكمون أخطاءهم بعضها فوق بعض، فلو تتبعوا الأصل الفرنسي لكتاب غوتييه بدلا من الاعتماد على ترجمته

العربية، أو نظروا في الخرائط الجغرافية للمملكة المغربية، لأدركوا خطأهم الشنيع، فالمكان كما في الأصل الفرنسي لغوتييه اسمه "إيسلي"، وليس "إزلي"، وأهل المغرب في خرائطهم وعلى أرضهم لا يعرفونه إلا بـ"إيسلي"، وهو وادي قريب من مدينة وجدة، وبه وقعت معركة شهيرة في التاريخ المغربي بين المغرب وفرنسا عام 1844م لا تزال تعرف حتى اليوم بـ"معركة إيسلي"، أما الموقع الآخر باسمه "عين إزليتن"، وليس "إزليتن"، وهو ليس مدينة أو منطقة، ويقع قريبا من مدينة فارس، علاوة على المسافة البعيدة التي تزيد عن 300 كم بين "إيسلي" و "عين إزليتن"، فلا تماس بينها أصلا.

ومصادرنا العربية، ومنها ابن خلدون، ذكرت أن زليتن اسم نحت من "يصلتن" جد أحد القبائل البربرية التي كانت تسكن المنطقة، وهو ما رجحه أيضا العلامة الطاهر الزاوي، وما أنكره واستهجنه تماما هذه المحاولات الغريبة العجيبة للتقريب بين موقع في المغرب وبين الولي الليبي الشهير سيدي زلي، دون الاستناد لمصادرنا العربية وهي الأقرب إلى وجداننا، بل ونبذها بالاعتماد على كلام مؤرخ فرنسي ألف كتابه لدوافع استعمارية بغيضة، حتى وإن اخطأ مترجم الأصل الفرنسي فقلب السين زاياً، فتحولت من "إيسلي" إلى "إزلي."

وإن أردنا البحث في دلالات اسمه بمقاربة يقبلها المنطق، ربما يكون الأقرب أن سيدي زلي منسوب لمدينة "زلة"، كقولنا الطرابلسي والمصراتي والسرتي، وغيرها، فابن غلبون يقول إن اسم المدينة "زالة" وعند العامة "زلة"، ونلاحظ أن سيدي عبد السلام سماه في بعض قصائده بـ"زالي"، ربما ولا أجزم بذلك.

لكن ما أجزم به هو أن سيدي زلي رمز من رموز الوطنية في تاريخ بلادنا، استعصى على الزمن أن يمحو اسمه الكريم من الذاكرة الليبية الصلبة، وبقي حياً طيلة قرون يحمل مكانة خاصة في وجدان أهل البلاد، ووثيقة هامة من وثائق التاريخ التي يجب أن تثبت في إطار البحث عن العوامل والمحركات التي أغفلتها المصادر المكتوبة في خلفيات حركة التاريخ في بلادنا.

ختاما أقول:

– للمتنكرين لأصولهم الغافلين عن ريادة السادة الصوفية: هذا هو "سيدي زلي" المصلح الاجتماعي الكبير الذي سبق اتفاق جنيف الرابع الموقع قريبا في عام 1949م لحماية المدنيين أثناء النزاعات والحروب، وإذا كان هذا الاتفاق لم يخصص للمرأة إلا ثماني مواد فقط في بابه الثاني عن حماية المرأة، فسيدي زلي قبل قرون أسس أول دار ليبية وطنية لحماية المرأة أثناء الحروب والنزاعات.

– وأقول لمن لا يعرفون لرجال ليبيا حقهم، ويدعون أن مجتمعنا أنقص حق المرأة الليبية: كفوا عنّا افتراءاتكم، فللسادة الصوفية في زليتن موسم سنوي يعرف بموسم المزارات، خلال شهري سبتمبر وأكتوبر من كل عام، يعدّ أكبر مؤتمر صوفي ليبي، ضمنوه رسالة لا يزال يحملها منذ قرون، مفادها أن المرأة الليبية مكرمة عزيزة ومحل إجلال واحترام كبير، فلا تبدأ سلسلة هذه المزارات إلا بـ"أمي عيشة التاورغية"، وهي سيدة ليبية مناضلة سنعرف بها في الحلقة المقبلة، ثم بـ"سيدي زلي" الوثيقة الليبية الهامة المؤكدة لإكرام الوطن للمرأة.

– موسم المزارات السنوي، هو المؤتمر السنوي الذي لا يزال شاهدا على حضارة الليبيين، وينقض ويدحض كل افتراءات المغيبة عقولهم من أبنائنا الذي تلقفوا زيف الحداثيين من أن المرأة في هذا الوطن حقوقها منقوصة، أو الوهابية المتحجرين الذي سمموا عقولهم بأن المرأة لا دور لها إلا في بيتها.

– هؤلاء هم أسلافنا في هذا الوطن، وهذه رسائلهم، ويجب عليكم يا من تدّعون قدرتكم على البحث العلمي، أن تنتبهوا لوجود مدونات تاريخية ليبية أصيلة، لا يزال أهل الوفاء يحافظون على تدوينها في كل سنة منذ قرون، مدونات أخرى غير ما كتبه لكم ليون غوتييه، وإيتوري روسي، وشارل فيرو، وأضرابهم.

– هذا هو "سيدي زلي" رمز من رموز الوطنية، وإن كانت الوطنية لا تحمل في مضامينها أعماله، فماذا تعني الوطنية ؟ !

– "سيدي زلي" المناضل، أيا كان من زليتن أو من زلة أو غيرها، فهو ينتسب لليبيا أمة الوفاء والإكرام، التي تدرك جيدا أن المجتمع دون المرأة لا يسير إلا أعرجا ولن يصل.

– أقول لسلالة هبنّقة ممن يعيشون معنا، وهابية وحداثيين، إن أهل ليبيا لا يعبدون سوى الله، وإنهم حماة الإسلام وقيمه، وكل ما يفعلونه أنهم يحملون احتراما للمكان ووفاء للإنسان، والوفاء ليس شركاً، وسيبقى "سيدي زلي" علياً في مكانه العلي.

(8) "أمي عائشة التاورغية" لا تزال عائشة بيننا

المناضلة ضد الاستعمار الإسباني، ورائدة التواصل الثقافي والعلمي بين أقطار المغرب العربي

لقد كان أسلافنا الكرام في ليبيا في قمة الوعي بأهمية ترسيخ قيم الوفاء والوطنية والانتماء للبلاد، وسبقوا بذلك عشرات الجامعات الحديثة التي تعج بها بلادنا وتدعي إقامة المؤتمرات والندوات حول التاريخ والاجتماع، وتجتمع على ذلك وتفرنقع وتفترق على لا شيء، أما السادة الصوفية فتنبهوا لمسألة هامة وهي الاستمرار في إقامة مثل (المزارات) المؤتمرات السنوية لتبقى حية يسلمها كل جيل لمن يليه، لتستمر معها وبها قيم الانتماء والمواطنة والهوية.

ومن تلك المؤتمرات المستمرة منذ قرون، ولا تزال تؤتي أكلها كل حين، موسم سنوي يقيمه السادة الصوفية بمدينة زليتن، خلال شهري سبتمبر وأكتوبر من كل عام، يزورون خلالهما أعلام ورموز الوطن، وقد تختلف الأدوات، فالأكاديميات لا تغادر ما يكتبه أساتذتها من الأوراق المطبوعة في مجلدات فاخرة، لكن أسلافنا آثروا الكتابة في الأعماق بمداد الأشواق، ولذا يُعد هذا الموسم وثيقة هامة من وثائق التاريخ الليبي التي لا تزال حية تختزن العديد من الصور والمحطات التي تحتاج دراسات جادة لتفيها حقها، ومنها وفاء السادة الصوفية للمرأة الليبية، واختاروا منهن "أمي عائشة التاورغية"، مثالاً مشرفاً للمرأة المناضلة، وإكراما ووفاء لدورها الريادي الوطني.

"أمي عائشة" ابنة عالم علماء المغرب سيدي عبد الرحمن الدرعي، وشقيقة سيدتي سليمة الدرعية والدة سيدي عبد السلام الأسمر، رضوان الله عليهم جميعا، سكنت مدينة تاورغاء، ولكن قبل الحديث عن أسباب سكناها لتاورغاء، أحببت التعريج على دور مهم لها ولأختها السيدة سليمة، فقد مثلتا حلقة هامة من حلقات سلسلة التواصل الثقافي والعلمي بين ليبيا والمغرب، فعلاوة على أنهما درستا وتعلمتا على يد والدهما العلامة سيدي عبد الرحمن الدرعي، لا بد من التنبه إلى أن الأسرة الدرعية من الأسر العلمية العريقة ليس في المغرب العربي، بل في التاريخ الإسلامي قاطبة، وكُتب التاريخ حافلة بتراجم رجال هذه الأسرة، والحديث عن مدارسها وأدوارها.

نعم قد تعد الطريقة الناصرية التي أسسها الشيخ مُحَمَّد بن مُحَمَّد الدرعي (ت 1085 هـ)، أحد علامات التواصل بين ليبيا والمغرب، وحظي هذا التواصل ببعض الدراسات، لكن لأمي عائشة وأختها السيدة

سليمة لهما السابقية في بناء أسس العلاقة بين ليبيا والمغرب، فكونهما بنتي سيدي عبد الرحمن الدرعي، من المؤكد أنهما حملتا معهما ثقافة المغرب، كما أنهما تأثرتا بالثقافة الليبية من ثم، ومن المهم حفظ دورهما ومكانتهما في سياق الحديث عن الترابط والتواصل الفكري والثقافي والعلمي بين البلدين.

وعودا للحديث عن سكنى أمي عائشة مدينة تاورغاء، أرجح أن اختيارها لهذا الموقع على علاقة بسكنى ابن اختها سيدي الإمام عبد السلام الأسمر لجبل سوف الجين وبنائه "قلعة" فيه، خصوصا أن المصادر حدثتنا عن خروجها من تاورغاء لتزور ابن اختها في "القلعة" محملة بالمؤن، وهو ما يعني أنها كان على علاقة بالجهود التي كانت يبذلها الإمام سيدي عبد السلام في مقاومة الإسبان، بل وتمد المجاهدين بالمؤن.

لم يكن دور أمي عائشة أقل من دور المجاهدين ضد الإسبان في تاجوراء، وفي مرتفعات غريان، فعملية اختراق حصار عسكري مضروب حول رجل منفي بقدر وأهمية الإمام سيدي عبد السلام، ليس بالأمر الهين، ومن المؤكد أنها لم تقدم على مثل هذه الخطوة إلا بعد رصد وتقصي للطرق الموصلة لـ"القلعة" في سوف الجين، ومن أهم دلائل ذلك اختيارها لتاورغاء مستقرا لها، فهي أقصر طريق وأكثرها أمنا إلى سوف الجين، وبذا يمكن القول أنها حولت تاورغاء إلى نقطة إمداد للمجاهدين في "القلعة".

وإذا تمعنا في ذكر الإمام سيدي عبد السلام لخالته أمي عائشة في قصائده في بيت واحد مع "رجال الهيشة"، وهي منطقة قريبة من تاورغاء و"القلعة"، ومع "سيدي نصر وجيشه" القريب موقعه أيضا من الموقعين، يمكن الربط بين تاورغاء والقلعة لتلمس ملامح دور جهادي ضد الإسبان كانت أمي عائشة تشارك فيه.

يرجح علامتنا سيدي أحمد القطعاني في موسوعته أن أمي عائشة توفيت عام 971 هـ، مشيرا إلى أن الإمام سيدي عبد السلام أشرف على دفن خالته، واعتنى بذلك عناية خاصة، واختار لها أن تدفن بين أهل تاورغاء الذين أحبتهم وأحبوها، فصارت تنسب إليهم، فيقال "أمي عيشة التاورغية".

"أمي عائشة" ليست مجرد امرأة، بل وثيقة من وثائق التاريخ الشاهدة على مرحلة من مراحل الجهاد ضد المستعمر، ودلالة واضحة على عمق الصلات بين أقطار الإسلام.

– هذه هي "أمي عائشة"، وهؤلاء هم أسلافنا الكرام، كرموا رموز الوطن، ولا يزال مؤتمرهم لتعزيز الهوية الليبية مستمراً.

– هذه هي "أمي عائشة"، أيها الجاحدون، لا تزال "عائشة" في قلوب ووجدان الوطن وأهله، كما وصفها سيدي عبد السلام "نورك ضاوي ضيَا"، لا كما أردتم يوم أن هاجمتم مقامها الأنور ونسفتموه بالقواذف.

ومن توفيق الله أنني كتبت هذا المقال، وأنا في رحاب "عائشة المنوبية"، في تونس الآن، وكم أتمنى أن تبقى "أمي عائشة التاورغية" عائشة في وجدان الليبيين، كما لا تزال "عائشة المنوبية" عائشة في وجدان التونسيين، فقد كتبوا عنها الدراسات والبحوث، وسموا باسمها منطقة بكاملها في عاصمة البلاد.

(9) سيدي مفتاح "سواق الحجل" الإصلاحي الليبي رائد حماية البيئة

سيدي مفتاح "سواق الحجل" رائد الصحة البيئيّة في ليبيا، سبق كل منظمات العالم اليوم، واضطلع بدور وطني إصلاحي لولاه لهلك سكان البلاد، إذ يحصي المؤرخون أن الأوبئة في زمنه "أزهقت أرواح عشرة آلاف شخص في مدينة طرابلس وحدها، وأكثر من خمسين ألف نفس في الدواخل، وكانت النساء والأطفال على الخصوص من بين أكثر الضحايا".

وسيدي مفتاح، هو المصلح الليبي الكبير الرحالة مفتاح العطوي الفيتوري الحسني الإدريسي، ولد في مدينة زليتن بليبيا، وفيها نشأ ودرس وتعلم في زاوية الإمام الأكبر سيدي عبد السلام الأسمر، وسلك على يديه الطريقة العروسية حتى أصبح من كبار رجالها، ويرجح علامتنا سيدي أحمد القطعاني أنه عام 1050 هـ 1640م تقريبا، وحول مدفنه الطاهر بمنطقة السبعة في زليتن يقام مزار سنوي.

ورغم شحّ المعلومات عن حياته في كتب التاريخ، إلا أن سبر غور ما توفّر منها يعكس صورة شخصية ليبية وطنية رائدة، خصوصا إذا استندنا إلى ما حفظته الذاكرة المحلية الليبية الصلبة التي أبت شخصيته أن تغادرها رغم مرور قرابة الخمسة قرون على وفاته، وعليه يندرج تاريخه فيما تعارف المؤرخين على تسميته بـ"الزمن الطويل"، فقد بقي حيًّا في ذاكرة الليبيّين يحمل احتراما خاصا في وجدانهم، ودون شك فمثل هذه المكانة العصية على النسيان تشير إلى دوره الفاعل والكبير في خلفيات حركة التاريخ الليبي.

ومُجمل ما ترويه مدونات التاريخ الليبي أنه كان يخرج إلى وادي ماجر، جنوب زليتن، ويسوق معه عددا من أنواع الحياة البرية التي تعيش في ذلك الوادي، ومن بينها طائر الحجل، فإذا ما أراد الناس صيدها، أشار إليها بيده فترجع لأوكارها.

ومن غرائب ما يروى في سيرته أنه يخرج إلى مراعي البلاد في الأودية والشعاب فيذبح ما يمكن ذبحه من الغنم، رغم اعتراض أصحابها عليه، كما حملت سيرته إشارات لتفشي وباء "الطاعون" في البلاد.

وبعيدا عن تضييع الوقت في مناقشة مهاترات من ينكرون أفضال الله على أوليائه وما يجريه على يديهم من كرامات، أحببت أن ألفت اهتمام المحتفين والمهللين خلال السنوات الأخيرة بأنباء اعتماد منظمة اليونيسكو، لمحمية "الشعافيين" كأول محمية ليبية ضمن برنامج "الإنسان والمحيط الحيوي" حول العالم، إلى

قدم دور التصوف في ليبيا في حماية البيئة والحياة البرية، وريادة سيدي مفتاح "سواق الحجل"، الذي سبق العالم بهذا الاهتمام بثاقب فهمه ووعيه ومسؤوليته الوطنية.

وإن لم ترد تفاصيل أخرى عن حياته، عبر المصادر المكتوبة أو الشفهية، إلا أن هذا القدر كاف لاستجلاء صورة دوره الرائد في مجال الصحة البيئية، ومن المفيد أن أُنّبه على ملامح تلك الصورة في شكل أسئلة: لماذا التصق به لقب سواق الجحل تحديداً؟، فالله سبحانه وتعالى أجرى على يديه مئات الكرامات، وماذا يعني سوقه لأصناف من الحياة البرية من الأودية كوادي ماجر إلى البلد؟، وكذلك المعنى العميق لمنعه للناس صيد تلك الأصناف ومنها الطيور والحجل على رأسها، مقابل مبالغته في ذبح الغنم في مراعيها.

وتعكس هذه الوقائع إدراكا عميقا لدى سيدي مفتاح بأهمية إحلال أصناف جديدة من الحياة البرية في منطقته لتوطينها، ومقاومته لظاهرة الجور في الرعي والصيد، وهما من أخطر العوامل التي تتسبب في اختلال توازن البيئة، ويُفهم هذا بشكل واضح من منعه الناس صيد ما يجلبه من الأودية، ومنعه في ذات الوقت لرعاة الأغنام من الجور على المراعي والقضاء على الأنواع النباتية.

أما "الحجل" تحديداً، فربما تكون أهميته واعتناء سيدي مفتاح به على علاقة بما تعيشه البلاد من انتشار لوباء "الطاعون" الفتاك، فمدونات التاريخ تحمل إشارات إلى انتشار القوارض وغزو الجراد التي تُعد أهم وسائل نقل الطاعون وانتشاره في البلاد، ويعرف الخبراء بحياة هذا الطائر أن تلك الحشرات غذاءه المفضل.

ومما يضاف لرسم صورة الدور الإصلاحي الذي مارسه سيدي مفتاح في هذا المجال، الروايات حول شخصية أخرى يبدو أنها شاركته في مشروعه الإصلاحي، وهو خاله سيدي "سالم زواي الجرارة"، الذي يتواتر عند أهل البلد حادثة من حاول سرقة "جرارة" بئر مزرعته ليلا، وعند هربه بها صارت تصدر صوتا عاليا وهي على كتفه ما جعل أهل المنطقة يتيقظون له فانفضح أمره، و"الجرارة"، هي العجلة التي يُجرّ عليها حبل دلو البئر، وكلها إشارات هامة على وجود حركة استصلاح وزراعة بالمنطقة كان يقودها خال سيدي مفتاح، الذي يدرك تماما أهمية عنصر الماء كعامل استراتيجي لحركة الاستصلاح وإقامة المزارع، وهو ما أدركه أيضا من كان كانوا يحاولون وأد هذا المشروع الإصلاحي، فركزوا سرقتهم على "الجرارة"، ودونها بكل تأكيد لن يتوفر عنصر الماء.

وأنا ذكرت سيدي سالم هنا، لدعم قراءتي الخاصة بمشروع سيدي مفتاح الإصلاحي، ولمكانته الخاصة عند سيدي مفتاح الذي اشترط زيارته قبل زيارته لقبولها.

نعم، لا تزال سيرة سيدي مفتاح "سواق الحجل"، تحتاج دراسة أكثر عمقا، لكنها لن تدور بعيدا عن فلك إدراكه ووعيه بمسؤولية لأهمية خلق بيئة متوازنة للعيش، سابقا بذلك أكاديميات وجامعات العالم اليوم لدراسة ما تعارفوا على تسميته بـ" حماية النظم الإيكولوجية"، فقد سعى سيدي مفتاح لخلق توازن بين الأودية والساحل والبحر، وهي عوامل تتوفر عليها مدينة زليتن.

والدراسات التي لا زلنا بحاجة إليها تتعلق أيضا بمحيطه الأسري والقدر الكبير من الوعي الذي كان يتوفر عليه أفراد أسرته، فالإشارات الهامة التي حملتها سيرة ابنته الوحيدة السيدة "ظعناء"، التي كان والدها يحمل لها مكانة خاصة جعلتها تحافظ على استمرار دورها والدها الإصلاحي في نشر الوعي الصحي بين الناس باقتدار، خصوصا وأن مدونات التاريخ تشير إلى ثقافتها الواسعة في هذا المجال، إذ تتحدث عن كثرة زيارتها للمصابين بوباء "الطاعون"، فإذ ما "زغردت" على مريض استبشر أهله بشفاءه، وإذا ما صدرت عنها علامات حزن يئس أهله من شفائه، وكثرة زياراتها نفهم منه عنايتها بمتابعة وضع ذلك الوباء وارتفاع مؤشراته لدرجة صعوبة مقاومته بالوسائل المعروفة، لنجدها تبحث عن وسائل أخرى على رأسها الدعم النفسي للمريض وأسرته، ودخولها على المصابين بذلك الوباء الفتاك يستدعي معرفتها بوسائل وقاية نفسها منه ودرايتها بأعراضه ومضاعفاته، ما يجعلها تدرك لأول وهلة نجاة هذا المريض منه فتبشر أهله بمظاهر الفرحة المعروفة وقتها، أو عدم نجاته لتهيئتهم لقبول القدر المحتوم.

ما أحوجنا اليوم الى الغوص في مخزون الذاكرة المحلية وما حفظته المدونات التاريخية حول الشخصيات الليبية لاستخراج جوانب ترسم صور أدوراهم المجتمعية في إطار نظرية التصوف الليبي الإصلاحية الرائدة، التي لا تزال بعيدة عن متناول يد الدارسين والباحثين في التاريخ الليبي.

وأجدني أذهب للتأكيد مرة أخرى بعد مقالي السابق (تراث الأستاذ الأكبر سيدي عبد السلام الأسمر، أكبر مصادر ومراجع تاريخ ليبيا)، على ضرورة حفظ الرواية الشفهية وأرشفتها، وإخضاعها للدراسة كأهم أهم مصادر تاريخنا، خصوصا أنها تحظى بعناية كبيرة في أقطار ودول تقدمت فيها مناهج وطرق دراسة التاريخ واستنطاق نصوص التاريخ غير المكتوب.

(10) سيدي إبراهيم بن ناصر، الذي قاوم القرمانليين وأرسى معالم استقرار منطقته

عاش الليبيون في عهد حكم الأسرة القرمانلية فترات من الجور والظلم والاضطرابات، أنتجتها العلاقة المتوترة بين الأسرة القرمانلية والزعامات المحلية الذين عارضوا سياساتها وطريقة فرض حكمها، ففُرضت عليهم الضرائب المجحفة بالقوة ونُفذت فيهم عقوبات القتل الجماعي وأُحرقت أرزاقهم، ما حتم على السادة الصوفية الاضطلاع بمهامهم وأدوارهم الوطنية التي تقتضيها أسباب وظروف كل مرحلة، وفي هذه المرحلة برز سيدي إبراهيم بن ناصر ليؤدي دوراً وطنياً يناسب متطلباتها.

وسيدي إبراهيم بن ناصر ولد بمدينة زليتن وبها توفي عام 1174 هـ، وأوّل من ترجم له هو شيخنا د. أحمد القطعاني في موسوعته، وحلاّه بـ "صاحب التصريف المأخوذ بالاصطلام عن الحال والمقام"، ولقّبه بـ "ابن يعزى ليبيا"، وفي ثنايا ترجمته نقل الكثير من الوقائع التي تشير إلى صلته بالسلطة القرمانلية، منها رسالة كتبها يوسف باشا القرمانلي بعد وفاة سيدي إبراهيم، ووجهها إلى مسؤولي مدينة زليتن في 27 شوال 1221هـ بـ "وجوب احترام قرابة سيدي إبراهيم بن ناصر وحرم زاويته وعدم التعرض لمن يلتجئ إليها" أ. هـ.

ويُمكننا رسم صورة واضحة للدور الرّيادي الذي قام به سيدي إبراهيم استناداً لما كتبه الشيخ القطعاني في المقام الأوّل، وكذلك على مخزون الذاكرة المحلّية الليبية التي احتوت كما كبيرا من المرويات التي لم تتبدّل وبقيت ثابتة بالتواتر ما يزيد من قيمتها ودرجة الوثاقة في صحّتها، لنكتشف أنّه نجح في تحقيق تنمية شاملة بكل مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ووفر لها مختلف العناصر اللازمة لإرسائها، وأوّلها إرساء الأمن والعمل على ابتكار طرق سلميّة لمقاومة تعدّي السلطة الحاكمة، بل وامتدّ سعيّه وجهده إلى طرابلس عاصمة الحكم القرمانلي لإصلاح المنظومة السياسيّة من داخلها.

واللاّفت في مجمل تلك المرويات أنّها تتّخذ من زاوية سيدي إبراهيم مركزا تدور حوله تفاصيلها، سواء تلك التي تتحدّث عن قيامه بتوزيع مهام بشكل متوازن بين أطياف المجتمع ومكوّناته السُكانيّة، أو عمله على إحلال أنماط من التقاليد الجديدة لبثّ سلوكيات ذات أثر إيجابي بما فيها السلوكيات المتعلّقة بالاقتصاد والرّوادع الاجتماعية، والملاحظ أن تلك الوقائع والأحداث تتمحور حول الزاوية.

ومن الواضح أن سيدي إبراهيم بن ناصر حوّل زاويته من مجرد مكان للقاء والتعليم إلى مؤسسة قوية وصل أثرها على خارج المدينة واعترفت بسلطتها الأسرة القرمانلية، ففي ثنايا المراسلة التي أشار إليها شيخنا القطعاني، نجد يوسف باشا يأمر قادة المدينة بوجوب حفظ قدر واحترام أسرة سيدي إبراهيم بن ناصر "وهناهم وقدرهم ورعايتهم وحفظ جنابهم وعدم المجاسرة عليهم وفي حرمهم بقي حرم الشيخ سيدي إبراهيم". بل يبدو أن الزاوية تحولت لمؤسسة حفظت الأمن وفرضت مكانة اعترفت بها الأسرة القرمانلية التي يبدو أنها كانت على معرفة مفصلة بها بدليل أن يوسف باشا ذكر حدود الزاوية وحرمها بشكل دقيق، ثم يطلب من قادة المدينة أن "لا يُخرج منه (يقصد حرم الزاوية) مخوف ولا مستجير ملهوف"، بل حتى الفارّ من سلطة القرمانليين يمكنه اللجوء للزاوية ويُمنع الدخول إليها للقبّض عليه فـ"من دخله كان آمنا مطمئنا على نفسه وماله"، ويجوز لقادة المدينة الدخول للزاوية وحرمها بقصد الزيارة فقط "لا يدخل أحد حرمه من كان من خدامنا وعامة رجالنا إلا بقصد الزيارة".

وفي آخر الوثيقة نفهم من قوله "ونحن الآن جددنا لهم" أن اعتراف الأسرة القرمانلية بسلطة سيدي إبراهيم كان منذ عهد علي باشا إذ يقول أيضا عن سيدي ابراهيم "بيده أوامرنا وأوامر والدنا"، كما يشير وصفه لسيدي إبراهيم وأسرته بـ"الأمراء"، إلى قوّة مؤسسة الزاوية التي أرساها سيدي إبراهيم حتى استطاعت الاستمرار من بعده.

واستمر دور الزاوية وشيخها سيدي إبراهيم ونالت احتراما ومكانة كبيرة، فقد تحول الضريح والزاوية إلى منطقة جذب سُكّانيّ، وهو ما لاحظه صديقنا البحّاثة الأستاذ الزروق اشناق من حديث هنريكودي أغسطيني، خلال كتابه سكان ليبيا، إذ أشار إلى تجمّع سُكّانيّ حول الضريح والزاوية.

كما أنّ جون فرانسيس ليون والأخوان بيتشي الذين زاروا زليتن بعد وفاة سيدي إبراهيم تحدثوا عن ازدهار كبير للزارعة ومنتجاتها، يقول الأخوان بيتشي "ظهر جليا عند وصولنا لزليتن توفر الشعير وزيت الزيتون ورخص ثمنها بمنطقة طرابلس"، ويبدو أن تلك البيئة الجديدة شجّعت الكثير من رؤوس الأموال على الانتقال إليها وأضافت روافد جديدة لاقتصاد المنطقة منها التوريد للخارج.

ويفيدنا في رصد ملامح مشروع سيدي إبراهيم ودور زاويته الإصلاحي نصّ نقله الشيخ أحمد بن حمادي في كتابه (منح رب العالمين) يشير فيه إلى توجيه سيدي إبراهيم بن ناصر تلميذه سيدي إبراهيم بن عبد النور لسكنى طرابلس، وملخصه أن سيدي إبراهيم بن عبد النور استقرّ في الساحل الشرقي من مدينة

طرابلس بالإذن الصريح التام من الشيخ إبراهيم بن ناصر اليزليتني بقوله : (يا إبراهيم أوليتك ساحل مدينة طرابلس غرب شندق وبندق، فيه أنت ونسلك، ولك فيه الراحة والهناء نسلا من بعد نسل)" (انظر منح رب العالمين في مناقب شيخنا الأمين، تحقيق شيخنا الفقيه الأصولي المشارك العلامة أ.د بشير القلعي ص 75)

ولا بد أن لتخرُّج رجل في وزن الشيخ إبراهيم بن عبد النور بمكانته العلمية حتى لقب بـ"العالم" من زاوية سيدي إبراهيم بن ناصر قبل ذهابه إلى الأزهر، دلالةٌ كافية على المستوى العلمي المتقدّم للزاوية، وقد يحفزنا هذا للبحث أكثر عن منهج الزاوية ومشروع مؤسسها، خصوصا أدوارها الأخرى، فلو كان هدفها تعليميا فقط لاكتفى الشيخ بن عبد النور بما تلقّاه عن علماء الأزهر وما رجع إلى سيدي ابراهيم ليأخذ منه أوامره عن مكان استقراره.

وفي توجيه سيدي إبراهيم لتلميذه بن عبد النور للسكن والاستقرار في طرابلس رصد آخر لملامح مشروعه الإصلاحي ووصوله إلى عاصمة الحكم، فقوله "أوليتك ساحل مدينة طرابلس غرب" يدل بشكل جلي على نفاذ أوامره وسلطته لدى القرمانليين بل وضمانه لتلميذه بن نور الهناء والراحة فيها.

ويبدو أن توجيه بن عبد النور للاستقرار في العاصمة كان وفقا لتخطيط مسبق يدل على معرفة سيدي إبراهيم بن ناصر بما يدور في بلاط السلطة وقراراتها وتوجّهاتها، وبالتالي سعيه لإصلاح النظام الحاكم من الداخل، فبعد سنوات من استقرار الشيخ بن عبد النور في طرابلس نجده قد تولّى مراكز هامة في السلطة منها كاتب السلطان قبل أن يصبح من وزراء الدولة، ما مكنّه بكل تأكيد من بذل جهود لإصلاح منظومة الحكم، كما تولّى رئاسة مؤسسة الإفتاء بطرابلس لمدة ثلاثين عاما، وأصبح قبلة لعلماء الدنيا ومنهم الصادق بن ريسون العلمي أحد أبرز علماء المغرب في عصره الذي حمل إلينا سندا علميا ليبيا أصيلا لا يزال متداولا بين علماء الإسلام حتى اليوم.

صحيح أنّنا لا نعرف من تلاميذ سيدي إبراهيم بن ناصر إلا الشيخ بن عبد النور والشيخ مُحَّد شكاب الفيتوري، إلا ان اختلاف دوريهما، إذ أولى تلميذه شكاب مكانة اجتماعية هامة في زليتن، قد يضاف الى جهود رصد ملامح المشروع الذي قاده سيدي إبراهيم للإصلاح في كل المستويات، حتى المستوى السياسي الذي نهج فيه أسلوبا خاصّا للمقاومة يختلف عن أساليب مقاومة الزعامات الأخرى الذين حدثتنا كتب التاريخ عن قيادتهم معارك ضد القرمانليين أتت على الأخضر واليابس وخلّفت الدمار،

فنجد اعتراف القرمانليين بسلطة الشيخ بن ناصر امتدّ لما بعد حياته حيث أشرفوا على إعادة بناء مؤسسات الزاوية، ومنها ضريح سيدي إبراهيم الفريد بقبّته التي تعتبر أكبر قبّة في كل المنطقة، واستقدمت له أمهر المهندسين والبنّائين من الأستانة لتصميمه وبناءه، وبقي الضريح بقبّته وثيقة تاريخيّة أثريّة هامة حتى عدا عليه الوهّابية عام 2012م وسوّوه بالأرض، وفقدنا بذلك أثرا ليبيا كان حتى ذلك الوقت شاهدا على دور الليبيين في فرض وجودهم الحقيقي على أيّ سلطة وافدة تسعى لحكمهم بالقوة.

ويحتاج بحث الدور الصوفي في الإصلاح السياسي جهودا مضاعفة لتقصّيه، فربما نتوسع أكثر في المقالة القادمة، والتي سأخصّصها للحديث عن سيدي "علي البكو"، للحديث عن هذا الجانب بشكل أكثر تفصيلا عن انتقال الإصلاح الصوفي في ليبيا، في فترات تاريخية مضت، من مستوى الخطاب إلى مستوى الفعل من خلال بناء عدد من المؤسسات السياسية التي وجدت في البلاد.

(11) المناضل الوطني "الشيخ علي البكو" أحد رجال الاستقلال الليبي

الصّوفي والمناضل الوطنيّ المثقف الإصلاحي، أحد رجال الاستقلال الليبي، العابد الذّاكر على قدم أسلافه أُولي العلم والولاية والصلاح، سيدي الشيخ علي عبد السلام بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحفيظ بن إمُحَّد الأصفر بن الشيخ مفتاح "سواق الحجل".
وُلِد بمدينة زليتن، وبها أخذ علومه على يد أساتذتها وكبار علماءها منهم الشيخ مُحَّد القط الورفلي، ولم يكتب عنه إلا شيخنا العلامة د. أحمد القطعاني في موسوعته (انظر الموسوعة ج 3 ص 276) وفي ثَبْته الكبير "أوبة المهاجر وتوبة الهاجر" (انظر الأوبة ج 1 ص 243)، وحلاّه بـ"ولي الله الشهير ذي المفاخر والمآثر البركة ولي الله الشيخ سيدي علي البكو"، وذكر أنّه سلك الطريقة العروسية على يد أستاذه الشيخ سليمان البانية الذي "قربه ورباه بلفظه ولحظه وسقاه ونماه حتى صار من رجال عصره"، وبقى مختليا للعبادة والتأمل لمدة بلغت 16 عاما، وكان "من عادته ألا يجيب طارق داره كائنا من كان، كثير التلاوة لكتاب الله الكريم، وإن دخل في عبادة من تلاوة أو ذكر يغيب عمن حوله".
وفي تفاصيل حياته الأخرى يقول شيخنا القطعاني أنّه "رجل رَبعة متماسك البنيان عاش حياته عزبا ولم يتزوج قط"، وأنّه "رجل ضرب به المثل في بره لأمه عمّار لبيوت الله، وكان جل تردده على مسجد سيدي رحمة في زليتن، كثير الكرامات ضربت شهرته الآفاق فقلما تجد أحدا ممن أدركه من أهل المنطقة الغربية من ليبيا إلا ويروي عنه كرامة أو أكثر."
ويضيف شيخنا القطعاني أن الشيخ البكو "ذو ثقافة عالية شغوف باقتناء الكتب حتى تكونت عنده مكتبة عامرة، يهوى مطالعة كتاب المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي ويحفظ منه الكثير ويحب قراءة كتاب الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ للشيخ أحمد بن المبارك ويقول: إن الذي لا يقرأ الإبريز الدنيا عنده كلها دريز أي لا قيمة لها حسب اللسان المحلي".
ويلفت الشيخ القطعاني إلى جانب آخر في حياة الشيخ البكو فيقول: "وطني له مساهمة في الحركة السياسية في عصره، وكان على علاقة وطيدة بالوطني المناضل بشير السعداوي، يتفق معه في كثير من الآراء، ويأتيه من زليتن خصيصا للمشاركة في النشاطات السياسية، ويلقي الكلمات والملاحظات حول ما يطرح من أمور، وعندما شكل بشير السعداوي المؤتمر الإسلامي كان الشيخ علي البكو عضوا فيه ".

توفي الشيخ البكو وهو في العقد التاسع من عمره في 28 رجب 1373 هـ / 1/ 4 / 1954م، ودفن رحمه الله ورضي عنه في روضه المبارك مجاورا لروضة جده سيدي مفتاح سواق الحجل بمنطقة السبعة في زليتن غرب ليبيا، ويقام له مزار سنوي.

وحظي سيدي علي بعناية خاصة من أخيه الأكبر الحاج عبد القادر الذي وجدتُ في وثيقة مؤرخة في 1313 هـ (1895م) أنّه كان يتولى الإنفاق على "أهل الطائفة العروسية وحلقة الذكر وفقرائها في زاوية سيدي مفتاح".

أما عن الذّاكرة المحليّة فهي تحتفظ باحترام وتقدير خاص لسيدي علي البكو، وتروي له عشرات الكرامات، لكن دوره الوطني ونضاله السياسي والجانب الثقافي في حياته كاد أن يختفي، ولذا حرصتُ على التركيز عليهما، فالمكانة الخاصة للشيخ علي البكو والمعلومات التي أوردها الشيخ القطعاني عنه تستدعينا لمزيد البحث.

وأول ما نقف عليه حول شخصيته، في الجانب العلمي والثقافي اهتمامه بمطالعة كتاب المستطرف، وهو كتاب في نوادر النحاة والأمثال والغرائب والأشعار، لابدّ وأنّه تم في وسط أدبي أو بسبب تأثره بشخصية أدبية تمكنت من بنائه لحدّ شغفه بكتاب كالمستطرف يعرف أهل التخصّص الأدبي جيدا أنه يحتاج ذائقة أدبية عالية لفهم ما فيه، وقد يعيننا على فهم هذه الخلفية ما ذكره الشيخ القطعاني من أن الشيخ سليمان البانية، شيخ سيدي البكو، حُفظت له "خمس قصائد صوفية غزيرة المادة المعرفية كلها فناء ومحو"، وقبل هذا لا بدّ لمن يشغف بمثل هذه الكتب من درايته بآلات فهم الأدب والشعر كالنحو والصرف والبلاغة والعروض وفنون اللغة، وأرجح أنّه درَسها على يد أستاذه الشيخ مُحَّد القُط الورفلي.

وممّا يرويه الشيخ القطعاني عمّن لازم الشيخ البكو أنه كثيرا ما يتمثّل بهذه الأبيات، وهي للقاضي المرتضى الشهرزوي الموصلي:

يا ليل ما جئتكم زائرا *** إلا وجدت الأرض تطوى ليه

ولا ثنيت العزم عن بابكم *** إلا تعثرت بأذياليه

وعلى ما في تمثله بالبيتين من توجيه صوفي رائق لمعاني مثل هذه الأشعار السائرة، إلا أنّنا نلاحظ أمرا آخر يشير الى شدّة انتمائه الصوفي، وهو اختياره لرواية خاصة بأهل التصوف لهذه الأبيات؛ إذ ترويها كتب الأدب بقافيتها المعروفة:

يا ليل ما جئتكم زائرا *** إلا وجدت الأرض تطوى لي

ولا ثنيت العزم عن بابكم *** إلا تعثرت بأذيالي

لكن الشيخ البكو اختار رواية صوفية خاصة للأبيات انفرد بها الامام عفيف الدين اليافعي في كتابه روض الرياحين، وهذا الاختيار نفهم منه أن كتاب روض الرياحين هم من الكتب التي احتوتها مكتبته الخاصة.

كما أنّا أصبحنا على دراية بأن جلاّس سيدي البكو هم من الطبقة المثقفة، فتمثله بهذه الأبيات، ورأيه في كتاب الإبريز الذي رواه الشيخ القطعاني: "إن الذي لا يقرأ الإبريز الدنيا عنده كلها دريز" يؤكدان ذلك، وإلا ما فائدة يروي مثل تلك الأشعار الفصيحة، بل ويحفظها ويروها عنه بعض جلاّسه، وأن يتحدّث عن كتاب الإبريز أو غيره من الكتب إن كان من حوله من الأُمّيين!.

وكذلك عرفنا أن كتاب روض الرياحين من بين كتب مكتبته، فكذلك كتاب الإبريز، علاوة على أننا نقف على دقة كلامه حول كتاب الإبريز، فمن درس كتب التصوف يعرف أن هذا الكتاب هو خلاصتها ويمكن أن يستغني به القارئ عن غيره من كتب التصوف، وهذا يفضي إلى القول أيضا أن مكتبة سيدي البكو توفرت على كتب التصوف الأخرى التي قرأها بعمق حتى وصل إلى هذه النتيجة بشأن مكانة الإبريز.

أما عن الجانب السياسي فكُلّ ما تحفظه الذّاكرة المحليّة هو زيارة المناضل السياسي بشير السعداوي للشيخ البكو في خلوته، لكن الشيخ القطعاني يؤكد أن الصّلة بينهما تتجاوز لقاء واحدا، فالعلاقة بينهما وطيدة واستمرت حتى أنّهما كانا يتفقان "في كثير من الآراء"، بل يفيض الشيخ القطعاني بكلام دال على مشاركته في الحياة السياسية بفاعلية، فيقول "وطنيّ له مساهمة في الحركة السياسية في عصره، وكان على علاقة وطيدة بالوطني المناضل بشير السعداوي، يتفق معه في كثير من الآراء، ويأتيه من زليتن خصيصا للمشاركة في النشاطات السياسية، ويلقي الكلمات والملاحظات حول ما يطرح من أمور، وعندما شكل بشير السعداوي المؤتمر كان الشيخ علي البكو عضوا فيه "، والشيخ القطعاني يقصد حزب المؤتمر الذي شكّله السعداوي عام 1948م.

وحدّثني الشيخ القطعاني أنّه رأى قُسيمة اشتراك خاصة بحزب المؤتمر عليها اسم الشيخ علي البكو، وهي عبارة عن وصل مقابل اشتراك مالي في الحزب، كما أنّني وثّقت شهادة أحد أبرز رجال حزب المؤتمر، وهو

الأستاذ السائح فلفل (توفي عام 2015م) ومضمون شهادته أن السعداوي كان لا يقطع بأمر سياسي دون مشاركة صديقه الشيخ البكو فيه، بل حدّثني أنه كان في صحبة السعداوي في الكثير من زياراته للشيخ البكو التي تُعقد خلالها جلسات مغلقة لمداولة قضايا تحرير سياسة الوطن ومسألة الاستقلال وجهود الحزب فيها، ويعرف أهل زليتن أن الشيخ مُحَمَّد غريبي والشيخ مُحَمَّد الدوفاني، ممثلَي حزب المؤتمر، هما من زوّار الشيخ البكو.

وأثناء بحثي حول شخصية الشيخ البكو ودوره السياسي والوطني، اتصلت صديقنا الصحافي الكبير سمير السعداوي، حفيد بشير السعداوي، الذي وعدني بالبحث عن أي وثيقة تبرز تفاصيل دور الشيخ البكو في حزب المؤتمر، بعد أن أكد لي أن اسمه قد طرق سمعه أو رأى شيئا عنه في مدونات جده، لكن المنيّة عاجلت صديقنا سمير إذ توفي رحمه الله عام 2019م، وربما يجود الزمن بأي وثيقة تبرز مكانة سيدي البكر في النضال الوطني، فلا أعتقد أنّ رجلا في حجم السعداوي يشرك الشيخ البكو في قضايا سياسية مصيرية إلا دليل على الثقل الذي كان يمثّله الشيخ البكو في الحزب، ومكانة كهذه تعني أنّه كان على دراية بمجريات الحياة السياسية المحلية والدولية.

لقد ساهم الشيخ علي البكو في جهود تحديد مصير ليبيا واستقلالها، هذه هي الحقيقة، وإن كُنّا نحتاج المزيد من البحث إلا أنّ الذي أردت قوله: هذا هو التصوف وهؤلاء هم رجاله روّاد الاصلاح في ليبيا، ردا لتُهم الدروشة والانعزال والسلبية، فالخلوات لا تُنجب إلا الرجال، وأكبر قادة الفكر ومحركي التاريخ كانوا من أرباب الخلوات، وأوّلهم وخيرهم وأفضلهم عند الله سيد الأكوان ﷺ الذي كان يتعبد الليالي ذوات العدد في غار حراء وخرج على الدنيا بحُلل الرضا التي نرفُل فيها إلى اليوم وحتى قيام الساعة.

وبمناسبة ذكر الخلوات وأهلها، فقد أكرمني شيخنا القطعاني بأن مكنني من التسبيح بسبحة سيدي علي البكو التي وصلته بالسند المتصل مقرونا بالمناولة من الشيخ مُحَمَّد سويسي، والشيخ سويسي ناوله الشيخ الهاشمي إبراهيم المجريّ سبحة سيدي البكو، والشيخ المجريّ ناوله إيّاها الشيخ البكو، قال الشيخ القطعاني "وهي كما أسلفت عين سبحة الشيخ علي البكو رضي الله عنه وصلتنا بالمناولة وهي عندنا نتبرك بها" (أنظر أوبة المهاجر وتوبة الهاجر ج 1 ص 325).

وقبل أن أختم مقالتي أحب أن أنوه، جوابا للعديد من الرسائل التي وصلتني وطلب فيها أصحابها منّي أن أكتب عن صلحاء آخرين، أنّني كتبت عن المصلحين لا الصالحين، وفرق كبير بين الصالح والمصلح، فقد

يختار الله من عباده من يجتبيه لقربه ويُشغله عن الخلق، لكن الشأن كل الشأن فيمن فرغ من إصلاح نفسه وتوجه إلى إصلاح الخلق وقلبه معلق بالحق، ولعلّ هذه المقالات تكون درسا لقادة وساسة البلاد اليوم في معنى الإصلاح والسياسة والاقتصاد وبناء المجتمع، ومحركا لهمم شباب بلادنا لتقفي آثار أسلافنا بالبحث والدرس والمدارسة والمعايشة.